موسوعة
فلسفية

ابو العلاء المعري



تأليف
الأستاذ خليل شرف الدين

منشورات
ومكتبة الهلال
بيروت

بيروت - اللعازارية - شارع الأمير بشير - تلفون : ٩٤٦ ٢٩٣
بيروت - شارع عمر بن الخطاب - تلفون : ٢٦٩ ٢٤٩
ص.ب : ١٥٥٠٠٣

« كان أبو العلاء برجا يرتفع وحيدا عاليــا ، في مفـــازة البشر . وفي الجهات كلها يرى ويتلالأ .. »
ادونيس

طرفا حياته : وجــودان .. وجــود مفروض
ووجود مرفوض ...
وفوقهما عقل يحتضن كبرياءه .. وفكره ..
ليتأبى على ليلين :
ليل العمى .. في دنيا العماية ..
وليل الجسد في مستنقع الدنس ..
وحق لفيلسوف المعرة أن يتجــاوز عصره ..
وناس عصره ..
فليس لمثله .. مثل عصره .. ولا لعقله ..
مثل عقول الموتى ..
من بني جنسه ...

عزاؤه الوحيد : انه لم يجن على أحد ..
وكذب الكثيرون .. على الواحد الأحـــد ..
وهو لم يكذب ..
وقلد الكثيرون .. وهو لم يقلد ..
فكان نبيا .. رحمانيا .. في عصر من الظلام
وقوم .. من المجوس ...
وعزاء قرنه .. انه ضم بين المطلع .. والختام:
ثائرين أكبرين .. بل رافضين أوحدين :
أبا الطيب .. وأبا العلاء ...

مقــدمــة

ظاهرة العصر :

كان طبيعيا أن ينهار كل شيء في العصر العباسي الثالث (القرن الهجري الرابع) كدولة ومؤسسات ومجتمع • وأن يزدهر ـ في الوقت نفسه ـ كل شيء من أشياء الفكر ، فتبلغ الفلسفة أوجهـا ، ومعركة علم الكلام نهايتها ، والشعر قمته ، والنثر أعلى مراقي بلاغته ، وأنق صوره ، فأصبح وكأنه فسيفساء ترصع بها جدران الأدب العربي وسقوف منزله ، بالرغم من أن سكان هاذا المنزل بدأو يغادرونه واحدا بعد واحد •• أما العلوم وهي الوجه الآخر للفكر ، فقد حققت في هاذا العصر نصرا مبينا ، لا سيما في ميادين التطبيق والممارسة ، وانعكاس كل ذالك على الانسان العربي في تفكيره وسلوكه ،

ونتاجه : أي في حضارته ..

هاذا الازدهار الفكري الحضاري كان ـ كما يقول ابن خلدون ـ ظاهرة طبيعية بعد قيام الدولة ، وابان تمازج العرب ، أصحاب العصبيتين ، بغيرهم من الأمم ذوات الحضارات العريقة . ثم أخذهم عنها عاداتها وتقاليدها ، ومعطيات فكرها ، وهضم كل ذالك (١) وتمثله واغنائه وتأصيله ، وبتعبير آخر : تعريبه بكل ما في كلمة تعريب ـ هنا ـ من تفرد واصالة وشوق الى الافضل ..

وكانت نقطة التحدب ، أو قمة العطاء في هاذه الدائرة الذهبية ممثلة بهاذا العصر أو قريب منه ، كما كانت القمة نفسها نذيرا بالانحدار الوشيك ، اذ ما لبثت أن تخلخلت وتصدعت ومال بها حملها نحو الحضيض السحيق . فهوت رغم تماسكها زمنا امتد حتى ابن رشد في الفلاسفة والمعري في الشعراء ، والبيروني في العلماء ، وابن عربي وابن الفارض في الصوفيين .

---

(١) نحن نكتب وفقا للقاعدة الجديدة القائلة : ما لا يلفظ لا يكتب ، وما يكتب فبصورته الاصيلة لا البديلة مثل كتبو هاكذا ، لاكن هاؤلاء لم يوافقو ومنهم ليلا الموجودة في المستشفا . للتفصيل اطلب كتابنا « ابن خلدون » دار الهلال ـ ١٩٧٩ ـ بيروت ـ او انظر اخر هاذا الكتاب .   المؤلف

هاذا التطفل أو هاذا التصدع يعتبره ابن خلدون كذالك ظاهرة طبيعية مثلما اعتبر التماسك نفسه . فظاهرة الازدهار تحمل دائما في طيات أسرارها ، جرثومة الانهيار : فكما ان لكل شيء نهاية كذالك هي حال الازدهار .. والمجتمع كالانسان خاضع لقانون التطور الطبيعي . فلم يكن غريبا أن يرافق الانهيار الازدهار أو يتولد عنه وفقا لمبدأ العلة والمعلول أو حتمية ظهور الشيء متى توفرت أسبابه ..

وأبو العلاء ـ اذن ـ ظاهرة طبيعية من حيث مفهومنا لقانون التطور في المجتمع والفكر . اذ من الطبيعي أن يمثل أبو العلاء في عالم الشعر والفكر والنثر منتهى درجات التطور التي بلغها العرب عصر ذاك . وأن يمثل في الوقت نفسه جرثومة ذالك الانهيار .

لاكنه ظاهرة غير طبيعية ، أو هو نسيج وحده ، حين نقيسه بانسان عصره : رجل دين كان هاذا الانسان ، أو سياسة ، أو فكر ، أو سلوك ..

هنا يبرز أبو العلاء انسانا مغايرا .. متميزا انسانا رافضا : أي جديدا ..

وهنا تكمن ثوريته •• وبالتالي تخطيه لزمنه ومجتمعه وأوضاعه ••

وحين تتخـذ الثوريـة عنصر الرفض الارادي العملي أو التحدي المسلح ـ كما فعـل المتنبي ـ يصبح معها الثائر مضطرا الى التعاطي مـع الغير بنفس أسلحة هذا الغير : من مرونة تبلغ أحيانا حد الانكسار •• ومن ميكيافيلية تنحدر الى مستـوى التزلف أو التآمر •• أو التراجع من أجل الهجوم •• والهجوم من أجل التراجـع الاستراتيجي ، كمـا يقول عسكريو اليوم ••

فالغايـة تبرر الواسطـة عنـد بعض الثـوار الميكيافيليين العاديين ••

والمتنبي لم يستطع الا أن يكون بعض هاؤلاء ، في بعض المواقف وبعض الظروف •• مع علمه بأن ناس عصره ، لا سيما الحكام منهم « أحق بضرب الرأس من وثن » فقد تعاطى مع أكثرهم • مـن أجل تغييرهم ؟ ربما •• ولكنه انحدر مرارا الى أقل من مستواهم ••

وعذره ، عندي ، انه انسان ، كان يريد ـ شيئا

ما ــ في ثورته ·· فخانته أدوات هذه الثورة ، وان لم تخنه شجاعته واباؤه وعناده ··

وحين عبر ، بالحرف الناري ، وحرقة البطل ، عن تطلعاته وانكساراته اكتسبت ثورته ، أو ثوريته ، صفاتها الاصيلة ، وعوضت عن خسائرها المادية ساعة انقلبت انشودة « رولانية » يغنيها الثائرون ، وأهزوجة يرتلها المغامرون ·· فعبرت ــ هاكذا ــ من دائرتها الزمنية الضيقة ، من دائرة التشرذم ·· لتدخل دائرة الفن ·· وراحت تنز جراحا ·· وتنبض حياة ·· وديمومة ···

أما ثورية أبي العلاء فكانت من نوع آخر ، لعله أشمل وأبعد مدى ··

لم يتعامل شاعرنا مع ناس عصره ، ليكشفهم أو يغيرهم أو يستغلهم ، أو يصل من خلالهم كما فعل المتنبي ــ على عظمة وايجابية ما فعل أبو الطيب ــ بل رثى لهم ، وتعامل مع نفسه أولا ·· ثم مع الوجود مباشرة ·· فبدا له الموجود بالنظر التأملي الثاقب : سخيفا ورائعا في آن : سخيفا عندما ينقلب المسخ بطلا في غفلة من الزمن ، ويظن القزم نفسه عملاقا ·· ويتصرف كل منهما على هاذا

الاساس .. سخيفا حين يزيف الحكام وظيفتهم فينقلبون جلادين للشعب بدل أن يكونو أجراءه .. سخيفا يوم يرى رجال الدين يمشون في الناس بأثقالهم وأوزارهم وَصَغارهم .. ويتخذون من الدين مطية .. مجرد مطية .. حتى يستدعي الأمر الشك بالدين نفسه .. سخيفا عصر تنقلب المقاييس ، وتتطاحن القيم ، والقيمون عليها شاهدو زور ، وأعلاهم في معيار الشرف والانسانية أدناهم، بل أقربهم في طباعه الى طباع البهائم ، وسعورة الكلاب ...

ورائعا .. حين يرفض العقل كل هاذا .. أو يتحرر من كل هاذا .. فينقلب انسان هذا العقل نموذجا .. بعد أن كان ظلا ، ورسما بعد أن كان اسما وبضعة من حياة .. رائعا .. لحظة يحس أنه قادر على التعبير والتغيير ..ويحاول.. يحاول التفجير .. والتدمير .. لا يبقي ولا يذر .. وكل سلاحه : لا سلاح .سوى العقل ـ الكلمة ، والكلمة ـ القنبلة . كل سلاحه : موقف .. ولا حياد .. وسخرية .. ولا تجريح .. ورثاء .. ولا بكاء ..

ألا نسمع من خلال أبي العلاء صوت سقراط يقارع السفسطائي غلوكون الحجة المسخ بالحجة

القدوة •• وبين سؤال ساخر وبديهيات لا يجيب عنها غلوكون بسوى الصمت العاجز •• تنفجر المهزلة ـ المأساة ؟!•

وغلوكون أبي العلاء هو الوجود والموجود •• والغيب والمصير ، وما وراء الحجاب •• هو السر والطلسم والعالم الاكبر والحلم السراب ••

لاكن أبا العلاء يعبث بالسر ويلهو بالطلسم ويهتك ما وراءهما ويفضح اللعبة •• فينكشف اللاعبون ••

ولاكن الوجود قائم على استمرار اللعبة واحتجاب اللاعبين •• في مسرحية كونية أشبه بمسرح الدمى •• تحت عنوان : عبثية الحياة •• أو لعبة العبث ••

هنا يبدو الشاعر ثائرا لا بوجه البشر بل بسر وجود البشر •• لا بالانسان المشوه ، وقد جعلوه أحقر من ذبابة •• بل بالسبب المجهول الذي أدى الى تشويهه •• ثورته اذن ليست على أرض الواقع بل على •• المجهول من أمر هذا الواقع ••

عمى •• ولا تشاؤم :

أما عماه فلم يكن هو السبب الاول والاخير في

ما يسمونه تشاؤما علائيا .. وحري بنا أن نسميه شكا و « قرفا » : عنصران كونا نواة رفضه .. بل كان عماه الحافز المباشر .. فوراء هذا الحافز نفس قلقة لو أعطيت ألف نور .. في ألف مشكاة لما حادت عن عنفها المدمر .. وحرفها ــ اللهب ، تحرق به شواذ الاشياء .. ولا تطمئن الا على ركام الرماد .. والأعمى ــ بعد كل هاذا ــ يتصور الاشياء ضبابا ، والألوان بلون الرماد ..

لو أتيح لأبي العلاء أن يبصر لتجسدت أمامه البشاعة ولبصق عليها .. دما .. لكن دون أن يزيد شيئا .. فقد أعطى ــ بهاذا ــ كل شيء ...

كانت البشاعة صورة تحكى عنها الاساطير عنده .. فتقرع أذنيه .. ويتقزز منها الكيان الشاعر .. وها هي تبرز واقعا مرئيا بالعين .. والعين تحدد الابعاد .. وتعين الاطار .. غير انها لا تدخل الى الاعماق ولا تسبر ما وراء الصورة من تهاويل وظلال وحقائق .. فليسقط الافتراض اذن ما دامت الباصرة حاسة ضعيفة السلاح .. مهزوزة الرؤية .. وما دامت البصيرة تحل مكانها .. ما دامت ترى بنورانية أشف وأنفذ وأبعد ..

أريد أن أقول ان الذين يردون نقمة أبي العلاء على الكون والكائن في عصره الى عماه ، وانه لو لم يكن أعمى لتغيرت الحال غير الحال •• هاؤلاء متسرعون ، ان لم أقل مخطئون ••

صحيح ان العمى بلاء مادي وأي بلاء • الا أنه ـ عند الملهمين ـ ليس سببا أول لرفض الوجود •• والموجود ••

كثيرون ممن فقدو أبصارهم استبدلوها برؤيا بصائرهم •• وأقبلو على الدنيا اقبال المبصرين •• وأبدعو في العديد من مجالات الحياة والفكر •• وعاشو عيشة راضية مطمئنة ••

هوميروس كان أعمى •• وطه حسين كان أعمى •• وبشار كان أعمى ••

وسيرة هؤلاء لا تنم عن تشاؤم كابن الرومي المتشائم المتطير ••المبصر ،بل عن تقبل للحياة •• واقبال عليها •• وأحيانا عن ثورة وغضب سلبي مدمر ••وهاذا لا يسمى تشاؤما •• ناهيك ببشار الضاحك الساخر •• المجدد المبدع •• المقبل على الحياة •• وموائد الحياة •• اقبال الوقح الشره •• الأكول ••

فلماذا ينسب هاؤلاء تشاؤم أبي العلاء الى عماه؟ ثم لماذا يسمونه تشاؤما ؟ •• لماذا لا يردون السبب الى نفسيته وتكوينها •• الى بسيكولوجية هذا التكوين •• وعلاقة هاذا الكائن « النظيف » اذا صح التعبير بعصر هو من أوسخ العصور العربية •• أو هو بداية تردي العرب في حمأة العفن والدنس •• ومستنقع الظلم والذل والهوان ••

لماذا لا يسمون ذالك التشاؤم المزعوم قرفا وصل بأبي العلاء حد الغثيان •• أو تمردا انتهى به الى الشك القاتل •• أو فهما أصح لحقيقة الأشياء •• انتهى بفيلسوفنا الى درجة أو حالة تشبه الكشف الصوفي •• لكنه كشف لا يتجلى فيه الله أو يحل •• بل هو كشف علائي تتعرى فيه الحقائق مما لحق بها من زيف وزور وبهتان ••

ثم تقذف بكل عريها على عدسة العقل والحواس فيتلقاها الحدس العلائي فيعبر بها الى دنيا الوضوح الواضح أو الفاضح لا فرق فاذا بها تؤذي الأذن العربية التي ما اعتادت سوى الرنين الأجوف والصدى المزور ••

وقبل هاذا لماذا لا يربطون بين امامة العقل عند

أبي العلاء ، أو نبوة هاذا العقل ، وبين عصر لم يضع فيه شيء كما ضاع العقل •• وعلى يد أدعياء العقل وأدعياء الدين ••

عما قليل وبعد قرن من الزمان سوف يكرس الغزالي هاذا الضياع العقلي ، فيطلع علينا ــ بكل جرأة المؤمن المغلق ــ بنظرية الاتفاق والعادة مبطلا السببية الطبيعية : أساس كل عقل وفلسفة وعلم •• هاكذا مجانا ولوجه عقيدته الاشعرية ودفاعا عن المعجزة •• كأن المعجزة لا تبرر الا بانكار مبدأ هام هو مبدأ السببية الطبيعية الذي قامت وتقوم عليه العلوم جميعا ويتمحور حوله الكون نفسه منذ فكر أرسطو حتى اليوم •••

لو فعلو ذالك وتبينو الموقف العقلاني العلائي الكامن وراء نقمة أبي العلاء وثورته وشكه ، لما قالو : انه العمى •• وانها النزوة العاطفية المتقلبة، والشعور بالذل والعجز أمام الآخرين •• عوامل قادت أبا العلاء الى أن يخبط في ظلماء الحياة ، ووعثاء السفر على درب الحقيقة الطويل •• فغادرته ريشة في مهب الريح ••

كلا •• لو نظرو نظرة أعمق لحقيقة هاذا

الانسان ، وموقفه من الحياة والأحياء ، وثقافته ، وعصره ، لما قالوا انه انسان متشائم وكفى ٠٠ فهاذه صفة عابرة وحالة لا تدوم ٠٠ وهي تعبير انشائي أكثر منه فلسفيا ٠٠ على أي حال ٠٠

والواقع ان أبا العلاء في صباه وقبل أن يتلقى الصدمة ـ الاهانة في مجلس الشريف المرتضى في بغداد ، وقبل فقده لأبيه ، ثم أمه ، كان غير متشائم على الاطلاق ، أو على الأصح ، غير انطوائي ٠٠ كان يستمع الى الغناء ، ويؤم مجالس الطـرب ، ويحضر المنافسة العقلية في لعبة الشطرنج ، ويعطي رأيه في اللعبة واللاعبين ، ويصف تأثره بالغناء ، ولو لم يفهم كلمات الاغنية أحيانا ، كما حدث له حين استمع ـ في حلب ـ الى مغنية تركية ٠ فقال واصفا تأثره بحلاوة صوتها :

« ورت كبدي ولم أفهم شجاها »

فكيف يكون عماه ـ أساسا ـ هو مصدر تشاؤمه؟ ثم كيف يسمى اعتزاله وحبسه الطوعي لنفسه تشاؤما ويأسا ؟ ٠ ٠ ٠ وهو الذي كانت داره المتواضعة في المعرة محجة العلماء ومقصد الطلاب من كل

نوع ، يعطيهم ولا يمل العطاء •• ويستمعون اليه ولا يملون الاستماع •• كأنهم مريدون في حضرة شيخ صوفي •• ينسون أنفسهم في غمرة الجذب والانجذاب ••لم يكن ذالك اذن تشاؤما ولا يأسا •• كان قرفا وبعدا عن التافهين والمتاجرين بالناس والعقائد والاديان ، ونأيا عن الظلمة الطغاة مصاصي دماء المساكين والضعفاء ••

كل ما في الأمر اننا ـ في أكثرنا ـ مؤلفون اتباعيون ، لا دارسون أو محققون •• لا نجرؤ على قول الحقيقة في ما نؤمن انه حقيقة ولو تجلت لنا في ضمائرنا نقية واضحة ••

ونحن لا نفهم شعراءنا ومفكرينا ـ مع الأسف ـ الا كما فهمهم الآخرون من عمالقة التاريخ وكبار مزوري الحقائق ومشوهي الشخصيات وعلى الأخص القدامى منهم الذين جاؤو قبل عصر الاستشراق ، هذا الاستشراق الذي مهما قيل فيه وفي أصحابه ومهما روي عن تحيزاتهم واقليميتهم ونعراتهم الصليبية فلأكثرهم يعود الفضل في اكتشاف شخصيات عربية واسلامية كانت حقائقها مغمورة تحت بحر من التعصب الذميم وسوء الفهم •

من هؤلاء الذين اكتشفهم المستشرقون وتلامذتهم العرب : الجاحظ كما يجب أن يفهم ، وابن الرومي ، وأبو حيان التوحيدي والمتنبي .. والمعري .. لكن هاذا الاخير لم تعقد حول حقيقته وحقيقة معتقده دراسات مستفيضة جادة الا في مطلع هاذا القرن وعلى يد طه حسين بالذات ثم بنت الشاطىء .. ومن نحا نحوهما ..

ولعل طه حسين كان أقرب الجميع الى فهم أبي العلاء نظرا لتشابه شخصيتيهما وتماثلهما في العمى المادي والذكاء والعقلانية والنقد والسخرية وفهم الوجود ..

هاذا في الأدب :

أما في العلوم كالرياضيات والكيمياء والفيزياء والبصريات والميكانيك والفلك والجغرافيا فلم نكن لنعرف عن علمائنا فيها ولا عن اكتشافاتهم العلمية شيئا عن طريق مؤرخينا القدامى الذين مروا بهاؤلاء مرور الكرام .. حتى جاء الدارسون المحققون من عرب وأجانب أمثال بروكلمان ومرغيلوث ودوزي وجب وجورج سارطون وبوتول ثم ساطع الحصري

ومحمد عبد الله عنان وعادل زعيتر وقدري حافظ طوقان ٠٠ الخ ٠٠ فعرفنا من يكون الرازي وابن الهيثم والخوارزمي والبيروني وابن خلدون ، وما هو فكرهم وطرائق بحثهم ومكتشفاتهم ومدى اسهامهم في تكوين نواة الحضارة الأوروبية ٠٠

وحتى اليوم لا يزال باحثونا الاحرار واقعين تحت تأثير وهيمنة النقاد السلفيين :

هاك مثلا : رواد الشعر الحديث أصحاب النظرة الانقلابية في مفهوم الشعر العربي شكلا ومضمونا وروحا ٠ ما هو حالهم أمام أولائك النقاد الكلاسيكيين ؟

ان وصمة العار وتهمة الأمية والنقل عن الغرب، والخروج على المألوف أقل ما ألصق بهاؤلاء الرواد من تهم ٠ لماذا ؟

لأن فلانا من كبار المشنمين وغلاة الكلاسيكيين قد شدد النكير عليهم ، واتهمهم ظلما وعدوانا بالأمية والجهل بالبلاغة العربية واللغة الفصحى وقوانين الشعر وحدوده ـ كأن للشعر حدودا وقوانين ٠٠ ـ والحقيقة هي أن فلانا هاذا أولى

بتهمة الجهل من أولئك : الجهل بمنطق التطور وسنة الحياة وأبسط مفاهيم الشاعرية الحديثة الحقة وان الوقوف عند حدود الخليل وقوانينه ايقاف للحياة وتجميد للروح وكفر بحتمية البعث في الشعر والقيامة للشعراء من بين الركام وقبور الموتى ...

الشاعرية يا هاؤلاء ، ونقولها مع نقاد الشعر الحر ومنظريه : الشاعرية لم تعد ـ اليوم ـ صناعة ألفاظ وصب قوالب وموسيقى خارجية تنبعث من خلال قصبات الأوزان والحروف المجوفة أو الجوفاء .. لتحدث جرسا كلاميا مكرورا ومسطحا ..

الشعر ـ يا هؤلاء ـ هو ذالك النور القدسي الذي يشع من الكائن الانساني الملهم .. والنور ـ كما نعلم من علم الضوء ـ حين يتأطر أو يصطدم بجسم ما ينكسر أو ينعطف .. ولا يلبث أن ينطفيء ...

هاذا هو شأن النور أو الضوء المادي فكيف بالنور المنبعث من الكائن الانساني .. أي ذالك

النور الالاهي الذي لا يمكن أن يحده حد أو تمسك به قافية ٠

والشاعرية الحقة ـ حتى في النثر الفني ـ فلذة حياة تسكب سكبا ايقاعيا في كلام ايحائي ٠٠ بل في حروف ونقاط مشعة ٠٠ وهاذا ما نسميه بالقيم التعبيرية والظلال النفسية المحيطة بها ، وكيفية التعامل التقني مع التجربة الشخصية ذات الارضية الواقعية المعاشة والابعاد الانسانية ٠٠ فاذا بالقصيدة الحرة ، أو قصيدة النثر ، أو النثر الشعري ـ سمها ما شئت ـ مع قياس الفارق ـ تصبح ملكا للانسانية جمعاء ، حين تترجم ، وملكا لكل فرد من أفراد الأمة قادر على التذوق والكشف، ومشاهدة نفسه من خلالها ٠٠

والحديث هنا ذو شجون، نقف به عند هذا الحد، كي لا نقع في الاستطراد ٠ أما في الدين ، فالمصيبة كانت أكبر ، حين تجرأ المفكرون المتحررون من فلاسفة وعلماء كلام على دخول متاهاته ، وفك أسراره ، لكثرة ما داخلته الأسرار والأساطير والافكار الحشوية الغريبة ، والاسرائيليات المدسوسة ، وبالتالي جعله دينا عقلانيا أو دين

حياة وانسان ونظام •• فكـان ان اصطدم هاؤلاء ـ ولا يزالون حتى اليوم ـ بحماة الديـن مـن السلفيين النصيين ، أي بالذين لا يقولون بالعقل طريقا الى فهم النص القرآني ، والحديث النبوي ، أو يقولون بأن العقل أداة محدودة وبالتالي عاجزة فيكتفون بأخذ النص عن السلف كمـا هو ، فـلا يؤولون، ولا يجتهدون •• ولا •• يعقلون •• عفو عقلائهم وما أقلهم •••

فأبو العلاء ـ بهاذا المقياس العقلي لا الاتباعي أو السلفي ـ يبرز شخصا آخر بعقلانيتـه وتفرده واحتضانه لذاته ووجوده وايجابيته •• فلا يأس من عمى •• ولا تشاؤم •• ولا انطواء ••• يبرز انسانا مقبلا على الحياة •• من خلال الذات •• والصعاليك من الاحياء •• من خلال المريدين •• والدعاة •• من طلابه •• وما أكثرهم ••

ونعني بالاقبال على الحياة : من خلال الذات • توقه الشديد الى اغناء هاذه الذات بجميع معارف عصره • ليطل بعد ذالك على الاجيال في كل زمان •• وكأنه يقول لهم : هاذا هو نموذج الانسـان العاقل المثقف العف الشاعر •• فكونوه ••

حتى محابسه الثلاثة .. لم تكن ـ بعد هاذا ـ وفي نظري على الاقل ـ محابس ضيقة مظلمة يائسة : كانت محابس مشعة بألف نور ...

فمن سويداء الباصرة الى ضياء البصيرة .. ضياء يكشف المجهول .. ويعري الحقيقة .. ويسخر من اللعبة واللاعبين ..

انه الموقف نفسه يقفه المبصرون في كل زمان ومكان :

فولتير .. بودلير .. موليير .. اكليروس .. ملوك .. جلادون : أسماء .. أسماء .. أسماء .. أشباه ونظائر .. أضداد .. اتصال النار بالنار .. لا أدري لماذا تقفز الى ذهني .. كل هاذه المتضادات كلما ذكرت أبا العلاء وعصره .. وناس عصره .. لعله الموقف نفسه .. والنظرة نفسها .. والحقيقة نفسها .. ربما .. والفضل دائما لأبي العلاء : لأنه المتقدم زمنا، والاعلى صوتا والاشد انبهارا أمام الفاجعة ... أو لأنه الالصق بها .. والاعمق شعورا مأساويا ... وبعد .. فالعمى ـ المبصر ليس محبسا .. ولا قيدا ..

والمحبس الثاني : الجسد •• لم يعد ــ هاكذا ــ محبسا •• فجسد تحرر اراديا من كل لحم •• ودم •• وجنس •• جسد شفاف نوراني يسير به عقل وبصيرة في عوالم فوق التـــراب •• والدنس •• والشهوة •• جسد لا يمكن أن يكون شيئا ثقيلا •• ولا قيدا •• ولا سجنا •• ولا شيئا من هاذا •••

والمحبس الثالث : المنزل • ماذا يضم ؟ كل ما يضمه : عينان منطفئتان مبصرتان وراءهما عقل نفاذ •• وجسد شفاف •• واذا الكل : مشكـــاة متوهجة تهب النور لفاقديه •• والمنزل المتوهـــج معها ، ينقلب محجة ومنارة ، يضج كل يوم بحركتي العطاء والأخذ ••

فكيف يكون مثل هاذا المنزل ــ المورد صومعة نائية ، أو دهليزا مظلما ؟ وبالتالي سجنا ؟••

التسميات لم تعد تهم •• ما دام أبو العـــلاء خارج محابسه دائما • يتعامل مع السوى باستمرار •• حتى نفسه ينظر اليها من خارج ، مسلطا عليها أضواء العقل ، كاشفا غياهبها ••

أما الخيال •• فحبل نوراني له أول وليس له آخر في مخيلة أبي العلاء ••

وهو خيال مميز عن الخيال العربي .. انه خيال تشخيصي مسرحي قادر على خلق العوالم التي يشاء .. والشخوص التي يريد .. وتوزيع الأدوار .. يطرح عليه ابن القارح سؤالا دينيا عاديا في رسالة عادية .. فاذا بالسؤال وصاحبه ينقلبان موضوعامسرحيا نقدياساخرا على الطريقة العلائية ، والمسرح : الجنة والنار . والبطل رب الارباب .. والخاتمة : لا خلاص .. ويسدل الستار .. ليرفع بعد ألف عام عن : الكوميديا الالهية : حفيدة رسالة الغفران !!! لم لا ؟..

– ان خيالا كهاذا لا يمكن أن يكون خيال سجين عادي .. مغلق ..

الشاعرية :

تميزت شاعرية أبي العلاء بخصائص شوهت بعضها آفة العصر : فسيفساء البلاغة الترصيمية ، والتعلق الشديد بلعبة المجانسة والازدواج والتلوينات الصوتية المختلفة ، والتباهي بالقدرة على نبش قبور الكلمات الميتة ، لا بقصد احيائها ونفض غبار الموت عنها بل بقصد تحنيطها ونقل

رفات رميمها من ضريح التاريخ ·· الى ضريح القالب التعبيري الاجوف ··· وحين أدلى أبو العلاء بدلوه برز ماتحا كبيرا بل نابشا قديرا للدفين الاقدم من مواتها ·· ولعل الخيال هو الجاني هذه المرة الى جانب الثقافة اللغوية المعمقة ، حين راح يرفده بالكثير الغزير من ميت الألفاظ ووحشي الكلام ومستغرب الصيغ والتراكيب ·· حتى انه راح « يعبث » باللغة في اللزوميات وبالشعر ·· وينحت ويخترع ، ويضع لروي القافية نظاما خاصا ·· وهو في كل هاذا أقرب الى عبث الوليد من « عبث الوليد » ··· فالبحتري يظل في ديباجته ولا سيما « سينيته » العملاقة أرفع من أن يعبث باللغة أو يلهو كما عبث أبو العلاء في لزومياته ، ولها ··· وهو يعترف بأن ذالك كان لزوم ما لا يلزم ·· انها آفة العصر والفراغ القاتل ·· ولا شيء سواهما ··

على أن هاذا العبث لم يكن صفة دائمة في اللزوميات ولا خاصة ملازمة لأبي العلاء في كل شعره فهناك قصائد تأملية وأخرى ساخرة ، وثالثة ناقدة متفلسفة يبث فيها جميعا حكمته وآراءه ومواعظه ·· وهو قد أحس بذالك حين قال : أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري ··

كأنه يعتبر الحكمة أو الفلسفة في الشعر أرفع من الشعر أو هي تخرج به عن دائرة « شاعرية » البحتري المسطحة في نظره ...

ومهما كان موقفنا من رأي أبي العلاء هاذا ، فان له فلذات شعرية يقف بها الى جانب كبار الشعراء العالميين ، لما فيها من توثب وصفاء وحرارة نفس انساني وشطح ملحمي يرود الاسطورة ويتخطى التاريخ .. ولما يغلفها أو يشع فيها من روح قلقة ، وشك ، وعمق احساس بالفاجعة .. أو المصير المأساوي للانسان .. وسخرية الاقدار .. وعبثية الحياة .. وجبريتها .. وقسوتها .. وتفاهتها .. والانسان ذالك العملاق ـ القزم ، رهن لمشيئة مجهول قد يكون حقيرا وقد يكون خطيرا ... لا يدري من أين جاء ولماذا جاء .. والى أين سينتهي وكيف ؟! هل هو حقا جدير بالبكاء أم بالرثاء ؟! يقولون له : اعمل .. لمن يعمل ؟! ... لنفسه وهو لا يدري من أمرها شيئا مهما تفلسف ... انها طلسم اضطر الى مرافقته بجسد لا يلبث معهما الا قليلا .. أم لغيره .. وهذا الغير أحقر من أن يضحى من أجله .. أم ... حول هذه الاسرار حوم شعر أبي العلاء ، وهام بروحه وفكره فوقها

وتحتها محاولا ـ كالخيام ـ اختراقهـا .. فلـم يستطع .. وحسبه انه دنا منها أكثر من غيره .. ورنا بكل ألق فكره وروحه اليها .. فتحطـم .. وكان التعبير الملهم عن كل ذلك التحويم والتهويم أحرفا نارية في أسلوب ثوري ، وروح ساخـرة ، لا سيما أمام الذين يزيدون المأساة الكونية مأساة .. من سخفهم وحقارتهـم .. أو مـن ظلمهـم واستبدادهم وتشويههم للحقيقة ، وللآخرين ..

ترى .. هل هي طبيعة الموجود وأساس تكوينه .. أم أن الوجود كله فساد في فساد .. وكارثـة مركبة ؟.. وما الاديان والشرائع سوى وسائـل تخدير لهاذا الانسان الحائر المحير ، اخترعها القوي لاستغلال الضعيف ؟! ثم بنى الحضارات تعبيرا عن هاذه الحيرة القاسية والقلق المدمر .. وما لبث ان دمرها بيديه ، وبنى على انقاضها حضارات أخرى .. وهاكذا ... تراه دائما هاربـا من نفسه الى نفسه .. خائفا منها اليها .. يعبد الأوثان .. ثم يحطمها .. يوجد الاديان .. ثم يكفر بها ...

أتراه جادا أم هازلا ، وفي أي الحالتين جـده وهزله ؟...

وأين تكمن قيمته .. وفنه .. وابداعه ؟...
وأين يكمن سخفه وهزله وتجديفه ؟... هل هو مخترع اللعبة .. أم انه لعبة اللعبة ؟!...

أمام كل هاذا وقف أبو العلاء الشاعر المتأمل .. فأبصر ما لم يستطع المبصرون أن يروه .. أو لعلهم رأوه .. لكنهم أغمضو عيونهم عنه زلفى .. أو دجلا .. أو رياء .. اما هو فقد أبصر .. ولم يغض طرفه ، لأنه لم ير مثلهم بعينين .. بل رأى بأصغرين .. وكان صادقا مع نفسه حين كذبو هم مع أنفسهم .. وربهم .. وحقيقتهم ...

على يد أبي العلاء خرج الشعر من دائرته القديمة الضيقة : دائرة العبث والفردية والقبلية والقدح والمدح والارتزاق الرخيص .. ليدخل دائرة أوسع، مداها الكون والانسان حيث يتم تسجيل المواقف من القيم .. والحقائق وكشف الزيف فيها بقصد التغيير .. وهاذه هي الدائرة العالمية للشعر ..

لم يعد الشعر على يد أبي العلاء وسيلة للعيش الرخيص أو الكذب المغلف والشتم الصبياني الأخرق .. بل أصبح وسيلة للفكر المتأمل وبوتقة

يسكب فيها الوجدان الصادق .. وتعبيرا مشعا عن حقائق الوجود والموجود ونقدا ساخرا لكل ما يشوههما .. لحظة انبثق ألقا نورانيا من الكائن الانساني المشع فكرا ووجدانا وحسا .. لقد قرب من ان يكون فلسفة .. أو شيئا من فلسفة ...

اذ ما هي الفلسفة ان لم تكن وقفة تأمل ومحاولة فهم لهاذا الكائن الذي يظن نفسه جرما صغيرا ، وفيه انطوى العالم الاكبر على حد تعبير أبي العلاء نفسه : أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر ..

ولذالك الكون الرهيب بكل دقائق صنعه وروائع نظامه .. صحيح ان الموقف العلائي ـ حيال كل هاذا ـ لم يكن واحدا .. ولا كان نهائيا .. أو مترابطا شيمة الفلاسفة الذين يلزمون أنفسهم وفكرهم بخط واحد .. وخطة متماسكة .. ومبدأ موحد أمام الحياة والأحياء والمصير .. بل كان أبو العلاء فيلسوف اللحظة .. أو اللحظات التي سرعان ما تذهب بقدر ما تتوتر .. وتتوتر بقدر ما يلتهب الوجدان بالتجربة .. ويتأثر الكيان بألم المعايشة .. وجبرية المصاحبة لانسان العصر

الذي فقد آخر صفة من صفات الانسانية ، فأصبح وحشا ضاريا ·· أو حملا وديعا يسير به الذئب أينما أراد ·· حتى لقد أصبح الذئب في نظر أبي العلاء كائنا اراديا أفضل بكثير من ذالك الانسان المسير الحقير ·· وأصبح عواؤه أحلى وقعا في أذني الشاعر من صوت ذالك الانسان :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى
وصوت انسان فكدت أطير ···

هل من حداثة في شعر أبي العلاء ؟ :

كثر الكلام في هاذه الايام عند الباحثين والنقاد الطليعيين عن الحداثة في الفكر والادب والفلسفة ولا سيما الشعر العربي المعاصر · واذا كان كلامهم عن الشعر القديم،قيموه على أساس مدى حداثته أو مقدار المعاصرة فيه أو ما يسمى قوة الحضور ومبلغ الديمومة والاستمرار في شكله ومضمونه · وعلى هاذا كان بديهيا أن يسقط الشكل بكل مقدساته القديمة تقريبا ، والمضمون نفسه تهاوى تحت مطرقتهم التي لا ترحم · وحق لها ألا ترحم لكثرة ما في شعرنا القديم من محنطات

وموضوعات تافهة طالما أزرت بالفكر العربي والكرامة الانسانية ، ومن أشكال قدست وعمل بها زمنا طويلا بالرغم من تطور الحياة العربية والبيئة العربية تطورا أصبح من غير الجائز معه ولا المقبول أن يستمر الشعر العربي بكل مفاهيمه وأشكاله البالية • ومن حسن الحظ أن الشعر العربي قد خطا منذ مطلع هذا القرن خطوات الى الامام انسجاما مع معطيات الثقافة العالمية الجديدة • لاكنهاكانت خطوات خجولة سرعان ما تجرأت في مطلع الخمسينات وراحت تشق دربها شقا جسورا • وها هي الآن تقف بكل كفاءة على أرض الواقع والمنطق مخلفة وراءها غبارا كثيفا طمست فيه معالم الشعر القديم ولم يكد يظهر منه شيء ذو خطر ••

وفي الستينات حاولت مجلة « شعر » أن تمسك بزمام التيار التجديدي وتنظمه داعية الى قيام دولة الشعر الحديث على أنقاض أمبراطورية الشعر القديم لاكنهاتعثرت وتهاوت لا لأن التيار المضاد كان أقوى بل لأن القائمين عليها تمادو في مفهوم التحديث لكي لا نقول أخطأو حين أرادو أن يقف الشعر العربي على قدم المساواة مع الشعر الأوروبي اذا جاز التعبير ولا سيماالشعر الفرنسي •

أي أن « يغربوه » فكانو ملكيين أكثر من الملك ووقع الشعر العربي الحديث أو مفهوم الشعر على يديهم، في التقليد والمحاكاة والبعد عن الاصالة ٠

والنقل والمحاكاة ـ كما هو معلوم ـ شيء والتأثر بالتيارات العالمية شيء آخر ٠٠

أما مجلة « مواقف » فقد أمسكت بالزمام عن جدارة أكثر ـ كما يخيل لي ـ حين راحت « تعقلن » الأشياء وتنظر القيم الشعرية والتعبيرية تنظيرا منطقيا يشارف الفلسفة في عمقه وأصالته ٠ وهي حين تتكلم عن « الحداثة » في الشعر ـ وقد أفردت لها عددا بكامله (١) ـ تتكلم عن ثقة واختصاص وتنطلق من منطلق عربي سليم واخلاص وفهم للحداثة عرف بهما صاحب المجلة أدونيس وعقدت له الريادة فيهما منذ زمن ٠٠

وبعد ٠ ما هي الحداثة باختصار (وفي الشعر خاصة) ؟

ـ أن يكون الشاعر ساخرا من كل زيف وكل انحراف في التراث ٠٠

---

(١) العدد رقم ٣٥ الصادر في اواخر حزيران ١٩٧٩ ٠

ـ أن ينشغل بفنه بدلا من انشغاله بالآخرين ٠٠

ـ أو هي حسب تعبير ياسر داغستاني (١) :
« الانفصام عن الماضي وازدراء التراث » وهاذه تهمة من الغير ، وليست مبدأ من مبادئهم ٠ غير انها ـ على أي حال ـ تهمة مقبولة لديهم اذا كانت تعني : الخلق والابداع ، شرط ألا يكون ذلك الانفصام كليا ٠

ـ والحداثة كلف بالسبر وريادة آفاق لم يردها السابقون ٠

ـ وهي التمرد على الثوابت المطلقة ٠ أو ما سميناه مقدسات في الفكر والفن والمجتمع والدين والسياسة ، محرم تجريحها أو النيل منها أو ابطالها ٠٠

ـ وهي تلك الروح الرومانسية العاشقة لكل جديد الباسقة على كل قديم المتعبدة في هيكل الطهارة والجمال ، والعقل ، تعبدا صوفيا صافيا لا دنس فيه ولا اثرة ، ولا عودة ٠٠٠

---

(١) انظر مجلة « مواقف » عدد ٣٥ ص ٩٧ ٠

ـ وهي بالتالي ذالـك الاحساس العميـق بالقهر الكوني ، ومأساوية الوجود .

ـ وهي التعبير عـن ذالك الاحساس العميق بـلا جدوى الحياة وتوليد الحياة .. فكل شيء فيهـا لا جديد فيه .. ومن يولد الحياة (أي من يتزوج مثلا) فكأنما يكرر الحياة .. والتكـرار شيء بليد .. فكيف بتكرار التكرار !!

وهذا صلاح عبد الصبور ـ أحد رواد الحداثة في مصر ـ يعبر عن هاذا الاحساس بقوله :

يتمحور بعض المكرورين الى أصوات..

أو أنغام أو أشعار ..
لاكن هدير الزمن الدوار ..
يبتلع الزامر والمزمار ..
يتحور بعض المكرورين الى طبل منفوخ ...
لكن ما تبثه الصحف اليوميـة والحوليات ..
ينساه التاريخ ...

وهاكذا يسقط بنا صلاح في هوة العدم القاتم (خاصة في مجموعته الاخيرة : الانبياء المهزومين) بلا أمل .. ولا سبيل الى أن نترك رسما على جدار

أو خطا فوق ديباجة أو نغما في أوتار كمان ٠٠ أو ذكرى في خفقات قلب ٠٠ أو خفقة طين على وجه الفضاء على حد تعبير صلاح نفسه ٠

ويعود الشاعر من رحلته مع الناس والاشياء ـ تماما كما عاد المعري من رحلة الشباب الى بغداد ـ عاد ليغمض عينيه عن كل ما رأى وسمع وتألم وفجع ـ عاد ليبحر هذه المرة في ذاته وقبل أن يمل الابحار غنانا ألمه وفجيعته بكل ما ومن حوله بعد أن أمدته الرؤيا الانسانية ببعض قبس نوراني مؤمن بالانسان ٠٠ الانسان الاسير المستغل المهان ٠٠

عاد الشاعران لينسجا لنفسيهما عالما شعريا خاصا وزاوية خاصة يطلان بها على ٠٠٠ تلك القصور الاسطورية التي حلم بها عبد الصبور ورثى لها أبو العلاء ٠٠ كيف هانت على الشعراء الأذلاء ٠٠

لا أدري لم ساقني الكلام عن الحداثة الى هذه المقارنة بين شاعر المعرة وشاعر الطليعة في مصر ٠٠٠ لعله هاجس الحداثة وتأكيد وجودها عندهما ٠٠ لكن لِمَ لمْ يقفز الى ذهني عبد الوهاب البياتي مثلا

أو بدر شاكر السياب أو نازك ◦◦ انها آفة التهافت في المشاعر أو تداعي الافكار أو شيء من هذا القبيل ◦◦◦ وليغفر لي القراء ذالك ◦◦◦ بقي أن يعبر المعري عن مثل ذالك الشعور المأساوي وهاذا الهاجس الذي يبلغ بصاحبه حد الهذيان ◦◦ أو المرض ◦◦

وأبو العلاء بلغ به الهاجس حد المرض ◦◦ والشعور بثقل الحياة وكآبتها ومجانية العيش فيها والغموض الأبله الذي يلف البداية والنهاية ◦◦

لن أدلل هنا بمقتطفات من لزومياته أو شذراته لكنني سأفعل ذالك عند نشر صحائف شعره بين يدي متذوقا ومحللا ◦◦ مكتفيا ـ هنا ـ بالقول ان الحداثة عند المعري تكمن في :

١ ـ الموقف المبدأي الرافض لكل الاعراف والعلائق البشرية ، وهو موقف يسلخه عن عصره ليقذف به الى العصور الحديثة : عصور التأمل والضياع والرفض ◦◦

٢ ـ امتياز شعره بالصدق والعفوية وتوتر الصورة وضبابية الالوان الصادرة عن انسان

أعمى لكنه مبصر ‥ وهنا تكمن مأساوية وجوده التي عبر عنها شعره الشاعر مجسدا احساس الشاعر العميق بالغربة والضياع والعزلة القسرية التي جاهد كثيرا ليحد من قسريتها وقسوتها باستقباله للمعجبين والدعاة والطلاب ، وان كان ذالك منه على حذر وتريث شديدين ‥

٣ ـ ابتعاده عن كل ما يزري بكرامة الشاعر ودخوله مملكة العقل والاحتماء به ، وريادته لآفاق وموضوعات شعرية لم يتطلع اليها خيال شاعر من شعراء عصره ٠ كما في رسالة الغفران رغم الاثقال اللغوية التي رزح تحتها ذالك الخيال العلائي المجنح ٠٠٠

وبقدر ما قرب أبو العلاء مما نسميه اليوم معاصرة أو حداثة أو تخط ‥ أو قوة حضور ‥ في شذراته وقصائده التأملية الحرة ‥ بقدر ما سقط في اللزوميات سقوطا مريعا ‥ حيث بدا أسير العصر وتعقيدات العصر اللغوية التي تبلغ أحيانا كثيرا حد الأحاجي والطلاسم في عبث كلامي لا طائل تحته ٠

انها آفة العصر كما قلنا .. لم يسلم منها أبو العلاء .. بل على العكس كان عليه ألا يسلم منها لتحميه من أدعياء اللغة والأدب وليحاربهم بسلاحهم وليقتل بها أوقات فراغه ـ وما أكثرها ـ .

٤ ـ أبو العلاء من الذين جار عليهم القدر وسحقهم المصير المحتوم . فهل نعتبره ـ في هاذه الحال ـ بطلا مأساويا ؟

كلا . فليس كل من جار عليهم القدر يعتبرون أبطالا مأساويين .. والا لكنا جميعا أولئك الابطال لأننا ـ كلنا ـ ضحية القدر .. البطل المأساوي هو الذي يخرج من بيننا شاهرا سيفه أو قلمه أو شاحذا روحه وقلبه وعقله مستعدا للوثوب على .. القدر .. متحديا المصير هازئا بذالك القهر الكوني والجبر الحياتي الذي يراد له . البطل بتعبير آخر هو صاحب ردة الفعل أمام المحنة .. صاحب التحدي الكبير .. بالكبرياء .. بالرفض .. باحتضان العقل .. فكيف اذا كان هاذا البطل شاعرا .. سلاحه العقل والخيال والحرف الناري المتوفز ؟!

كان أبو العلاء بحق هو هاذا البطل المأساوي الذي أفرزه القرن الرابع الهجري وكان شاهدا على انهيار كل شيء فيه ٠٠ ممثلا قمة التحدي أمام ذالك الانهيار وذالك الضياع ٠٠ بالكلمة الشاعرة الساخرة ٠٠ من انسان أقام لنفسه عالما خاصا ومفهوما خاصا للحياة والأحياء ٠٠ ألا يستوي في هاذا وكبار الابطال المأساويين في تاريخ الأمم والأديان : كابليس الرمز المأساوي للتحدي البشري أمام لعنة القدر وسوء المصير ، أو النبي ابراهيم رمز الطاعة أمام الابتلاء ٠٠ وانتيغوني رمز الانسحاق الحتمي تحت قدمي المصير المفجع ؟! (١) وأوديب في نهايته المفجعة الكئيبة الذي قابل التحدي بالتحدي مع علمه بأن هاذا التحدي هو جزء من مصيره وان كبرياءه ستنتهي به ــ وقد انتهت ــ الى الدمار واليأس والموت الزؤام ٠٠

في رأيي ان أبا العلاء لا يستوي معهم فحسب بل يفوقهم مأساوية وتحديا واشعاعا وتأثيرا ٠٠ كان أبو العلاء أكبر محاور للموت يتحدى به الحياة

---

(١) انظر كتاب نقد الفكر الديني د٠ صادق جلال العظم ص ١٠٦ ــ ١٠٧ دار الطليعة ــ بيروت ١٩٧٠ ط٠ ثانية ٠

وعدمية الوجود. ألا يكفيه بهاذا حداثة في الروح والموقف والسلاح ؟!...

أبو العلاء والفلسفة :

هل صحيح قولهم انه فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة ؟ أم ان هاذا النوع من الازدواج اللفظي أو الطباق هو الذي استهوى مطلق هاذا القول دون أن يراعي الحقيقة ؟

الواقع ان في هاذا القول كثيرا من ظلال الحقيقة، لا سيما اذا قلنا مع بلايك بأن « الشعر أداة لنقل الفلسفة » . خاصة تلك الفلسفة الصوفية القائمة على التوحيد بين الروح والجسد وبين الواقع والخيال .

وما كان شعر أبي العلاء شيئا سوى ذالك : كان كما نعلم أداته الوحيدة للتعبير عن « تأملاته » في الكون والكائن والدين والمصير . أي تعبيرا عن فلسفته الخاصة ونظرته الى قضايا الانسان والمجتمع والعادات والمقدسات . الا أنها فلسفة مضطربة اذا جاز التعبير . أي انها لا تشكل عند أبي العلاء نظاما موحدا لآرائه ومواقفه .

أبو العلاء ـ بهاذا الاعتبار ـ فيلسوف اللحظة أمام حقيقة من حقائق الوجود أو المجتمع : يراها بكل صفائها وعمقها بعد أن يعريها من شوائبها وستائرها الكثيفة • فقد كان قادرا علـى الغوص والكشف •• لكنه لم يكن قادرا علـى الاحتفاظ بمكتشفاته وتنظيمها •

وحين أعلن هوغو وأتباعه من الرومانسيين أن الشاعر نبي كان أبو العلاء أسبقهم بألف عـام الى اعلان ذالك : أعلن أبو العلاء نبوة العقل • وأعلن هاؤلاء نبوة الشاعر • وهم ان اختلفو مع فيلسوفنا في تقديس العقل الا أنهم لم يختلفو معه في نبوة الشاعر ••

وواضح أنهم لا يعنون بالنبوة هنا ان الشاعر صاحب رسالة لهداية البشر •• بل باعتباره انسانا متميزا ، عليه أن يعاني ما عاناه الأنبياء من صراع ذاتي وانسكاب روحي للحصول على نعمة الكشف والالهام •• معاناة قد تصل بالنبي الى أن يرى الموت سبيله الأفضل الى المعرفة ••

والرومانسية كالفلسفة : سعي دؤوب وراء

الحقيقة ووراء المجهول • وتخطي ظواهر الاشياء طلبا للوحدة العميقة •

فاذا كان أبو العلاء رومانسي النزعة بشكل أو بآخر فهو فيلسوف بشكل أو بآخر •• لاكنه يؤمن بالعقل اماما وهاديا ونبيا وهم لا يؤمنون فهو ـ اذن ـ ليس فيلسوفا رومانسيا وحين يكفر بالعقل كما كفرو وآمنو بالوحي والالهام دون وساطة العقل كان مثلهم فيلسوفا •••

وعلى هاذا نستطيع أن نسميه فيلسوفا في رسالة الغفران حيث تسلح بما تسلح به الرومانسيون المحدثون : الخيال والنقد والهدم والتمرد على القيم والمقدسات •• فيلسوف السخرية على الأقل ••

أما في اللزوميات فهو ليس بفيلسوف على الاطلاق حتى ولا بشاعر •• الا اذا عددنا العبث اللفظي والنظم الكلاسيكي المعقد شعرا أو فلسفة •

هذا من حيث التقيد الأعمى بالقافية والروي • أما حين يطغى العقل في اللزوميات على آلية التعبير ويسيطر الفكر التأملي والعاطفة فان أبا العلاء

يرتفع عن مستوى التعبيرية المعقدة ويتحرر من ثقل اللغة الى ذروات الابداع حيث يروح يتعاطى مع الحقائق مباشرة ٠٠ مع الناس ٠٠ مع الله ٠٠ والوجود والمصير مؤمنا حينا ٠٠ شاكا وساخرا أحيانا ٠٠ دون عائق لغوي الا عائق الروي وما قبل الروي ٠٠ عاهة أو صفعة لم يستطع أبو العلاء التحرر منها ٠٠ وكأنها ـ في رأيه ـ سلاح من أسلحة التحدي والاستعلاء ٠٠ كما سبق القول ٠

والشاعر يختلف عن الفيلسوف في أنه يدرس الأشياء كما هي وكما يجب أن تكون ٠٠ أما الفيلسوف فلا يهمه كيف كانت وما ستصبح بل يتناولها هي ثم يتناول جزئياتها ويبحث في ماهيتها ونوعيتها وعناصرها ٠

وليس أبو العلاء أمام الاشياء مفسرا ولا محللا بل هو كغيره من الشعراء متذوق ومتأثر ، ومسجل موقف قد لا يلتزم به ٠ فهو ليس بفيلسوف بالمعنى الكلاسيكي الدقيق للكلمة

وخلاصة القول : ان أبا العلاء باعتباره شاعرا شخصانيا وعقلانيا أي انسانا « عائدا الى ذاته » متحررا من الماضي وكل ما ومن يمثل هذا الماضي ،

يبرز فيلسوفا كاملا بهاذا الاعتبار خاصة حين ينتهي الى رفض وجوده المأساوي لكنه يجد انه « ملقى في المحيط مجردا من كل مرسى » على حد تعبير أدونيس ملقى بلا اختيار ٠٠ منداح في وسط الدائرة الوجودية الجهنمية ٠٠ بلا أمل في العودة أو الخلاص ٠٠ وأبو العلاء يجد نفسه دائما في حالة التميز والتفرد واللاانتماء ٠٠ انه انسان لا منتم بكل ما في هذه الكلمة من معنى فلسفي حديث وبهذا الواقع القسري الذي هو فيه ٠٠ أو الذي « لم يكن له شأن في اختياره » كما يقول هيديغر ، يجد أبا العلاء نفسه وجها لوجه أمام عالم عدائي يهدد ذاته باستمرار ، وعليه باستمرار أن يجابهه ٠٠ يرد عليه ٠٠ لا لكي يربحه ٠٠ بل لكي لا يخسر ذاته وعقله ٠٠

وحسبه أنه حين يكون في دائرة الفكر والعقل والتأمل والحكمة والابداع يخرج نهائيا من دائرة الشعراء التقليديين الصغار ، ويقرب جدا من الفلسفة ٠٠ الفلسفة التي كانت ولا تزال تطرح هذا السؤال : من أين والى أين ؟ ماذا وراء الحجاب؟ وهذا الانسان من هو وما مصيره ٠ وهذا الوجود ما عناصره وما قيمته ٠ والجواب : لا جواب ٠٠

ويستمر اللهاث وراء السراب : الفيلسوف مغرور بالعقل والشاعر مبهور بالحس وبين غرور الفيلسوف وانبهار الشاعر وقف أبو العلاء معلنا نهاية القبول في الشعر العربي ، وبداية الرفض أو التساؤل (١) .

ألا يعتبر أبا العلاء بهاذا .. وبهاذا خاصة فيلسوفا .. لا سيما حين ينفي ذالك ويهذي به .. لاكنه ـ انصافا للحقيقة ـ فيلسوف بلا طريقة أو منهج ..

اذن هو فيلسوف الشعراء الى حد كبير ، وشاعر الفلاسفة اذا صح التعبير .. وليسمح لنا أدونيس أن نسميه فيلسوفا بلا طريقة بعد أن أعطاه كل خصائص ومنطلقات الفيلسوف ما عدا الطريقة والمنهج (٢) .

المؤلف

---

(١) على حد تعبير ادونيس . انظر كتاب ديوان الشعر العربي ـ الكتاب الثاني ـ لادونيس ص ٢٨ ـ ٢٩ ـ المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت ١٩٦٤ .

(٢) ديوان الشعر العربي ـ الكتاب الثاني ـ ص ٢٩ .

حياته :

طرفاها ربيعان ٠٠ بينهما خريف بارد ٠٠

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان التنوخي ٠ ولد في معرة النعمان (١) يوم الجمعة عند مغيب الشمس أواخر شهر ربيع الاول سنة ٣٦٣ هجرية ، ١٦ كانون الاول ٩٧٣ ميلادية ٠ أصيب بالجدري بعد أربعة أعوام من مولده فذهب بصره : غشي يمنى عينيه بياض وكانت نادرة (٢)، وانطفأت اليسرى تماما وكانت غائرة ٠٠ لم يعرف من الالوان سوى الاحمر وهو لون الثوب الـذي

---

(١) وهي بلدة صغيرة في سوريا قرب حماه وشيزر ٠ منسوبة الـى النعمان ابن بشير الانصاري والي حمص الذي تدبرها زمن معاوية فنسبت اليه ٠ المؤلف

(٢) بارزة ٠

ألبسه يوم أصابه الداء (١) وقد ظل وجهه مجدورا طوال عمر امتد ـ على كره منه ـ نيفا وخمسة وثمانين عاما : (من ٢٧ ربيع أول ٣٦٣ الى ١٣ ربيع أول ٤٤٩) • أما جسمه فكان نحيلا منذ النشأة ، وزاد نحولا أيام لزم محابسه الثلاثة وحرم على نفسه أكل اللحوم من أي نوع ، وبيض الحيوان ولبنه، شيمة قدامى فقراء الهند ودراويش الصوفية • ودامت نباتيته سبعا وأربعين سنة ، ألذ حلاوة لديه التين وأشهر طعام العدس ••

أهله وعشيرته :

جمعت أسرته الى كرم المحتد سمو المنزلة • فقد اشتهر منها نجباء تقلدو مناصب قضائية عالية في المعرة وحلب • من هاؤلاء جده سليمان قاضي المعرة ، ثم أبو بكر عم أبي العلاء ، ثم أخوه أبو محمد عبد الله والد أبي العلاء ، ثم أبو المجد محمد أخو أبي العلاء الاكبر • وكان شاعرا متزهدا • وأخ آخر هو عبد الواحد وكان شاعرا غزلا ••

---

(١) مع ان هاذا الثوب كان بلون العصفر وهو اقرب الى اللون الاصفر منه الى الاحمر •

وكان من أبناء اخوته وأحفادهم علمـــاء وفقهـــاء وأدباء وخطباء أبرزهم محمد بن عبيد الله الــذي أدرك عم أبيه أبا العلاء وروى عنه أشعاره وكتبه ٠ وكان قاضيا في المعرة الى أن دخلها الصليبيون سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٨م) (١) وقبل كــل هاؤلاء أبوه عبد الله الاديب اللغوي الفقيه الشاعر الذي أحاط ابنه بعناية خاصة نظرا لعماه المبكر ولما توسم فيه من الخير والنجابة فعلمه مباديء اللغـــة العربيـــة وآدابها وأشعارها ٠ فلا عجب أن يكون أبو العلاء ما كان ، فهو من بيت علم وجاه ودين وأدب ولغة ٠ وقانون الوراثة يحتم ذلك ٠ فالعجيب اذن ألا يكون أبو العلاء كذالك ٠٠ لا سيما وهو بين عمومة وخؤولة متأثر نجيب ٠ فكيف « تمشي القوافي تحـــت غير لواء » هذه العائلة الكريمة الشاعرة ؟ أيمكن أن « تسلبها العز » قبيلة مهما عظم شأنها وبأسهـــا ؟ وهل يسير أحد في بادية السماوة الا وقومـــه لـــه حافظون ؟ (٢) وحق لفتى كأبي العلاء أن يفتخر بأهله وعشيرته من آباء وأجداد وأخوال ٠ حتـــى جدته لأبيه كانت من رواة الحديث والشعر ٠

---

(١) انظر دائرة المعارف م ٤ ص ٤٥٦ ٠

(٢) انظر ابو العلاء المعري - اعلام العرب ٣٨ د٠ بنت الشاطىء ص٠٧

أما أمه، فما دار حديث في الشعر العربي على لسان شاعر بأحلى ولا أحنى مما دار على لسان أبي العلاء • ولا كان أشهى ولا أشجى من رثائه لها • انه حين يذكرها فكذكر صوفي حل فيه ربه أو كمتعبد متهجد يسبح بآلاء خالقه صبح مساء ولا يمل • يذكر كيف كانت تأخذ بيمناه •• وكيف كانت ترعاه في بلواه وكيف كانت في طفولته تحتضنه وتسمي عليه حين ترضعه، وتقرأ آيات الكرسي وتعوذه من الشيطان (١) •

أما فجيعته فيها فقد كانت تاريخية قضت على آخر أمل له في الحياة وكانت نقطة التحول الكبرى في مسيرته وسيرته • فهي التي قرر بعدها الاعتكاف ولزوم المحبسين : الثلاثة ••• مطلا من خلال الفجيعة على الناس •• يراوده طيفها كلما عاوده الحنين الى الصفاء والنقاء والبراءة •• حنين بدأ في غربة أبي العلاء في بغداد أملا واعدا •• موصولا بين حياتين •• وما أحلاه ! وحنين من جانب واحد بعد فراقها الابدي •• وما أمره !••

حنين تطفئه « قطرة من ماء المعرة •• » لكن

---

(١) المصدر نفسه ص ٢١ •

الحنين الى الطيف بعد الموت لا تطفئه ينابيع الدهور ·· ويبقى الطيف ماثلا نصف قرن ·· وفؤاد الابن لاهثا كل العمر ·· بلا عزاء ولا سلوى ··

ويا سلوة الايام موعدك الحشر ··
موعد والله بعيد ··· (١)

كنيتــه :

لم يتزوج أبو العلاء فلم يأت العلاء الابن ·· فمن أين جاءته هذه الكنية ومن كناه ؟

التاريخ لا يذكر شيئا من أمر هذه الكنية مع ان التاريخ قديما وحديثا لم يهتم بأديب أو متفلسف كما اهتم بأبي العلاء · غير ان أحدا من المستشرقين أو المؤرخين العرب القدامى لم يهتم بكشف الغطاء عن كنيته وأسبابها ·· وأغلب الظن انه هو الذي كنى نفسه بها ليرمز بها الى استعلاء نفسه بنفسه دون أن يكون الولد هو الذي يمليها أو يسمو بها · واذا تباهى الوالدون بما ولدو ، فان المعري يتباهى بالعلاء ــ الرمز ، لا بالعلاء ــ الولد ···

---

(١) اما اسم هذه الام فقد فتشنا طويلا في امات المراجع فلم نعثر عليه سوى انها « بنت محمد بن سبيكة » المصدر السابق ص٤٢

واذا كان غيره من أهل أو معجبين قد لقبوه به فقد أشارو الى حقيقة هذا الانسان الذي أراد أن يكون له كباقي الناس لقب أو كنية تشير الى شرف ذاته وسمو نفسه فقبل بالعلاء ابنا وهو الذي لم يرض بالدون يوما .. وأنا أصر على أنه هو الذي لقب نفسه بأبي العلاء أو أوصى به ، وان كان هو قد علق على ذالك بقوله :

دعيت أبا العلاء وذاك مين
ولكن الصحيح أبو النـزول

فهاذا من باب التواضع وميل منه الى احتقار كل ما يشير الى الكبرياء أو التسلي المصطنع والتباهي الاجوف بالكنى والالقاب ..

أستاذوه :

يكاد يكون أبو العلاء أستاذ نفسه قبل أي أستاذ آخر فلم ير مستمعا الى من يأخذ عنهم فحسب بـل مناقشا ومحاورا ، سوى أبيه وأمه وجده وجدته (١) وأخيه فقد أخذ عن هاؤلاء أخـذ الراهب الخاشع المستوحي ، ينهل من معينهم رحيقا دينيا صافيـا

---

(١) وهي ام سلمة بنت الحسن بن اسحاق ابن بلبل المعري .

وتربية عالية تتناسب وشرف منزلته وكريم محتده وتتلاءم مع ما كان عليه من سمو نفس وعلو همة وطموح لا حدود له ..

أما مشايخه ومقرؤوه القرآن فكانو جماعة ممن شهرو بالقراءات السبع . ورواية الحديث أخذها على أبي زكريا بن مسعر المعري وأبي الفرج عبد الصمد الضرير الحمصي ، والقاضي أبو عمر عثمان الطرسوسي وسواهم من رواة الحديث الثقاة في المعرة وحلب .

وعلوم اللغة والنحو عن أبيه أولا ثم عن أبي بكر بن مسعود النحوي وبعض كبار تلامذة ابن خالويه في حلب (١) .

وحين رأى منه أبوه ذكاء حادا وذاكرة عجيبة واستعدادا تاما للتلقي تشجع ومضى به الى حلب ـ وفيها أخواله القضاة الاغنياء ـ وهناك تلقى النحو على محمد بن عبد الله بن سعد النحوي .

---

(١) نذكر بأن ابن خالويه كان مربيا لسيف الدولة فهو من علماء اللغة والادب الكبار . ولم يكن احد سواه يستطيع الوقوف في وجه المتنبي من حيث التبحر في اللغة والادب والنجوم .

وهاذا الاخير كان أحد رواة أبي الطيب • فروى مرة على مسمع أبي العلاء في حلب وكان لا يزال حدثا قصيدة للمتنبي مطلعها :

أزائر يــا خيــال أم عائــد
أم عنــد مولاك انني راقــد

فلما وصل الى قوله :

أو موضعا في فنــاء ناحيــة
تحمل في التاج هامة الماقــد

اعترضه أبو العلاء الفتى وقال :

أو موضعا في فتان ناجية (لا فناء ناحية) (١)
وحين تحقق ابن سعد وجد أن الصواب ما قالــه أبو العلاء ••

وهذا دليل على قوة ذاكرة أبي العلاء الذي بكر في الحفظ والخزن • ولا عجــب فهاذه ظاهــرة عالجها علماء النفس الحديث فوجدو أن الحواس

---

(١) الفتان غشاء من ادم يوضع فوق الرحل والناجية الناقية السريعة• انظر : ابو العلاء المعري د• بنت الشاطىء ـ اعلام العرب رقم ٣٨ ص ٣٧ ـ مصر ١٩٦٥ •

اذا تعطلت احداها أغنى ذالك الحواس السليمة الباقية .. لا سيما العينان : هاتان الباصرتان المنفتحتان على العالم الخارجي بكل أشكاله وألوانه وحركته وصخبه وهمسه وايحاءاته .. اذا تعطلتا وفرتا التأثر بكل هاذا وانقلب الأعمى مبصرا بشكل آخر : مبصرا بأذنيه ويديه ومنخريه .. بل بكيانه كله .. فيرى ما لا يراه المبصرون .. وعلى نحو أعمق ..

أما الذاكرة أو الحافظة وهي قوة هائلة من قوى النفس فنصيبها أوفر من انطفاء العينين .. لأن ما يعطل غناها بالمعلومات انشغال العينين المبصرتين بالخارج .. برؤية الاشياء والتعامل معها ..

وهاكذا ما رأينا ولا سمعنا بضرير موهوب الا وكانت ذاكرته من أقوى وأغنى الذواكر حفظا واستيعابا .. حتى اننا لا نكاد نصدق ــ نحن المبصرين ــ ما يروى عن أعاجيب ذاكرة أبي العلاء . لا سيما اذا كنا نجهل علم وظائف الاعضاء وارتباط عصب كل حاسة بمكان ما من الدماغ وتأثير هاذا الارتباط على الدماغ نفسه وبالتالي التفكير ..

حيث يبدو الدماغ ـ كشرطي المرور ـ منهمكا دائما بتوزيع حركة السير . والعينان طريقان هامان يكثر عليهما السير والازدحام .. فاذا سدتا هان على الشرطي تنظيم السير على الطرق الفرعية الأخرى على ما فيها من زحمة وحركة ...

وسواء كان تصحيح البيت الآنف الذكر دليلا على قوة ذاكرة أبي العلاء أو دليل فطنة ودقة ملاحظة فان أخبار ذاكرته العجيبة تملأ كتب السير وجعبة الرواة . ونحن لا ننكر عنصر المبالغة من أجل التشويق في ما يذكره الرواة عن ذاكرة أبي العلاء الا أن الثقاة منهم يروونه على وجه التأكيد والجزم :

أعاجيب الذاكرة :

رحل أبو العلاء في صباه الى انطاكية وتردد الى مكتبتها يحفظ ما فيها . قال ابن منقذ وأكد ابن العديم في « الانصاف » :

كان بانطاكية خزانة كتب وكان الخازن بها رجلا علويا ، فجلست يوما اليه فقال : قد خبأت لك غريبة ظريفة لم يسمع بمثلها .. صبي دون

البلوغ ضرير يتردد الي ، وقد حفظته في أيام قلائل عدة كتب ، وذالك لأنني أقرأ عليه الكراسة والكراستين مرة واحدة فلا يستعيد الا ما يشك فيه، ثم يتلو علي ما قد سمعه كأنه من محفوظه . قلت : فلعله يكون يحفظ ذالك . قال : سبحان الله ! كل كتاب في الدنيا يكون محفوظا له ؟ وان كان ذالك كذالك فهو أعظم .. » .

ومهما يكن من أمر هاذه الرواية وصحتها وان انطاكية يومها كانت بيد الروم (١) فهاذا لا ينفي ما تواترت الاخبار به عن غرائب تلك الذاكرة :

قال بعض مؤرخيه ما خلاصته : ان أبا العلاء استمع في الشام الى شاعر دمشقي (لعله الوأواء الدمشقي توفي حوالي «٣٩٠هـ») فأعجبه فصاح به قائلا : أنت أشعر من في الشام .. وتمر الايام والاعوام فيستمع أبو العلاء وهو في بغداد الى شاعر يلقي قصائده فعرفه من أسلوبه ونفسه فصاح به قائلا : ومن في العراق ... فاذا به الشاعر ذاته الذي استمع اليه في دمشق !!..

---

(١) من سنة ٣٥٨ اي قبل مولد ابي العلاء الى ٤٧٧ وبعد وفاته بـ ٤٨ سنة .

وقيل انه مر قبل اعتزاله ببادية السماوة أو بادية الشام (١) وحين وصلت به راحلته الى شجرة ضخمة في الطريق قال له مرافقه : ها هنا شجرة فاخفض يا سيدي هامتك قليلا • ففعل • •

وتمر الايام والاعوام وتقتلع الاعاصير الشجرة الضخمة • • وتموت الراحلة • • لكن أبا العلاء لا يموت شيء في ذاكرته • • يمر يوما في رحلة ثانية على الطريق نفسها وحين يصل الى المكان الذي خفض فيه هامته تحت الشجرة يكرر الحركة نفسها • • فيتعجب المرافق ويسأل سيده عن السبب فيقول : لأن ها هنا شجرة • أليس كذالك ؟ فينكر المرافق ولكن أبا العلاء يصر • • ويبحث المرافق في الرمال فيجد جذع الشجرة لا يزال • • • !! مع ان أبا العلاء يخاطب الانسان قائلا :

سميت انسانا لأنك ناسي • •

أما هو فلا ينسى • • لعله من طينة فوق مستوى البشر • • ربما فالمواهب والحدوس الكبرى ترتفع بالانسان عن مستوى العادي من البشر • • • بل هو ؛

---

(١) وكان في طريق عودته من بغداد الى المعرة •

في الواقع ، قانون التعويض « الذي يمنح الاحساس الداخلي ما فقده الاحساس الخارجي من قدرات .. » (١) .

أما سهولة قوله الشعر الصعب فحدث عنه ولا حرج وهذه اللزوميات بين أيدينا خير ناطق على ذالك . واذا كان أبو العتاهية « يتناول الشعر (السهل) من كمه »كما قال ، فان أبا العلاء يتناول الشعر الصعب من جعبته وذاكرته الزاخرتين بكل غريب من غرائب المضامين والأساليب والقوافي » .

روى بعض مؤرخيه حكاية خلاصتها : ان أهل حلب سمعو بذكائه وهو صغير ، فسافر جماعة من كبارهم لينظروه ويمتحنوه . فقال لهم : هل لكم في المقافاة في الشعر (أو التقفية المعروفة حتى اليوم) فجعل كل واحد منهم ينشد بيتا ، وهو ينشد من حفظه بيتا على قافيته ، حتى نفد حفظهم فقال : أعجزتم ان يعمل الواحد منكم بيتا عند الحاجة اليه على القافية التي يريد ؟ قالو : فافعل أنت ذالك . فجعل كلما أنشده واحد منهم بيتا ،

---

(١) انظر : ابو العلاء المعري : متأمل في الظلمات لادوار امين البستاني ص ٤٢ سلسلة المصابيح ـ بيت الحكمة ـ بيروت ١٩٧٠ .

أجابه من نظمه على قافية البيت ، حتى قطعهم جميعا ! (١) ٠

في الواقع ليس عجيبا ولا مستغربا كل هاذا من أعمى كأبي العلاء سلاحه في ذلك الزمن السيء ذاكرته يختزن فيها ما يدخره ليوم اللقاء ٠٠ مع الشهرة والمجد الادبي والاستاذية و ٠٠ التحدي ٠٠ الكبير ٠٠

ثم ان الطريق الوحيد لدى الاطفال العميان في الشرق ـ كما يقول طه حسين ـ « هو طريق الدرس وتحصيل العلم » فينصرفون بكل همتهم الى ذالك ٠٠ ليخرجو من ظلماء الحياة وظلم الاحياء موفوري الكرامة مزودين بهاذا السلاح الماضي الذي لا يقهر ولا يفل ٠٠ وهاذا تماما ما فعله المعري ونجح فيه الى حد بعيد ٠٠

وفي شمالي سورية نزل أبو العلاء في دير الفاروس وأخذ عن أحد الرهبان العلماء بعض

---

(١) انظر كتاب : ابو العلاء المعري للدكتورة عائشة عبد الرحمان ـ بنت الشاطىء ـ اعلام العرب رقم ٣٨ ص ٤٠ ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٥ ٠

مبادىء الفلسفة اليونانية وعلوم الاقدمين مما جعله يشكك في حقيقة دينه والاديان الاخرى • كما وقف أبو العلاء على تعاليم المسيحية واليهودية وقوفا عابرا ، فأضاف كل ذالك الى ما كان يعرفه عن الديانات الشرقية من مجوسية وزارادشتية وصابئة وبرهمية (١) •• مما كون لديه مواد شكه فيها جميعا •• ولعل ذالك عائد الى عدم تعمقه في دراستها ، أو لما كان يراه من زيف رجال الدين في عصره واختلافهم وتناحرهم واتخاذهم الدين وسيلة للكسب الرخيص والتغرير بالناس •• واستغلال الضعفاء منهم ••

قلت قبل قليل ان أبا العلاء كان أستاذ نفسه بمعنى ان الذين أخذ عنهم كانو قلة والوقت الذي أنفقه معهم كان قليلا بالنسبة الى الوقت الذي أمضاه في بغداد وحلب واللاذقية مع الوراقين ودور العلم وخزائن الكتب يستمع الى خازنيها يقرأون عليه الكراريس تلو الكراريس وهو يلتهمها التهاما •• ثم ينطلق من منزله في بغداد « حاضرة الدنيا » كما يصفها الزجاج محاورا كل صاحب علم أو فرقة أو ناد •• ولو قدر له أن يستمر في ارتياد نادي

---

(١) والبراهمة من اهل الهند يحظرون ذبح الحيوان ويجحدون الرسل •

الشريف المرتضي ويبقى الود والاعجاب موصولين بين الرجلين ـ كما كانا باديء الامر ـ لكانت لأبي العلاء صولات وجـولات في عـالم الشعر والأدب والنقد ولكان أفـاد واستفـاد كثـيرا ٠٠ غير أن أرستقراطية النادي حالت دون ذالك وحولت مجرى حياة أبي العلاء : فمن اقبال على العلم والحياة في بغداذ ومن صحبة ودودة لأهلها الذين كانو كمـا يصفهم الزجاج « ملائكة الارض للطافة أخلاقهـم وخفة أرواحهـم » وتبغددهم وشـدة اهتمامهـم واعجابهم بأبي العلاء ٠٠ من كل هاذا الى نفـور « وقرف » واعتزال ٠٠ ولا نقول ٠٠ الى يـأس وتشاؤم وانقطاع ٠٠ فقد كان أبو العلاء بعيدا عنها كلها وهو الذي أقبل بكل جوارحه على الدنيا والناس لا لستر العجز والعاهة الماديين كما يقول معظم المؤرخين ، بل للتحدي ولاثبات ان من كان مثله طموحا وعلائية لا تقعده عاهة ولا يفل من عزمه قضاء ٠٠

كانت الدنيا اذن أمه الثانية ومعلمته ٠٠ كما كانت همته لا زيد مـن العلمـاء ولا عمرو مـن الشيوخ ٠٠ كان الكراس والكتاب والوراق والخازن والنادي وفوقها جميعا همة وموهبة لا تغلبان ٠٠

هي في الواقع موارد علمه ومصادر ثقافته وامتيازه •

تلامذته :

ان انسانا كهاذا الانسان الطُّلَعَة ، المتعدد جوانب الثقافة ، الجريء ، المتحدي ، المؤمن ، الكافر ، الرافض لشتى مغريات الحياة والسياسة ، وحتى دعوة داعي الدعاة الفاطمي للقدوم الى القاهرة ، الأعمى ، البصير ، الصريح الهازل الساخر الذي لا يخشى في الحق لومة لائم ولو كان في حضرة نقيب الأشراف ••

انسان كهاذا لا بد أن يملأ الدنيا ويشغل الناس تماما كسميه المتنبي،وان يكون له محبون وكارهون وناقدون وان يتتلمذ على يديه الكثيرون •• حتى اليوم ـ وآثاره لم تكتشف كلها ـ نجد من يجادل فيه : هل هو فيلسوف أو بعض فيلسوف ، هل هو أديب ولغوي وشاعر كباقي شعراء عصره •• وكل من الناقد والحاقد والمعجب قديما وحديثا ـ أقر له بالفرادة والامتياز لما في أسلوبه ورمزه وروحه ومواقفه من ثورية وانقلابية تخطت مقاييس عصره وبرز عالمي الشاعرية •فتارة يقارنونه ببول فاليري

ـ كما فعل طه حسين ـ وتارة ببودلير ٠٠ وأخرى بكيتس « شاعر الموت » كما أرى أنا ٠٠ وتستمر أستاذيته عبر الاجيال ٠٠ أول تلامذته كان ابن أخيه « أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله قاضي المعرة ونسيبه جعفر بن صالح وأبو الحسن علي بن عبد الله متولي أوقاف المسجد بالمعرة وولده أبو الفتح وجماعة أخرى من بني هاشم لم يذكر ابن العديم أسماءهم (١) وهاؤلاء كانو تلامذته كما كانو كتابه ينسخون له ما شاء من أمال وتصانيف وشذرات دون أجر ٠٠ الامر الذي شق على أبي العلاء فقابله مرارا بالشكر والثناء ٠٠

وقد تتلمذ على يديه كثيرون أثناء اقامته القصيرة في بغداد ٠ وكان في الخامسة والثلاثين ٠ أما بعد اعتزاله فقد أصبحت داره مباءة لطلاب العلم من كل نوع يقصده بعضهم من المعرة وآخرون من حلب وكفرطاب والاندلس وتبريز وبغداد والانبار ونيسابور ٠ وقد ذكر ابن العديم في كتابه (الانصاف والتحري) من أشهر تلاميذه

---

(١) انظر كتاب : ابو العلاء المعري : متأمل في الظلمات ادوار امين البستاني ص ٢٥ منشورات بيت الحكمة سلسلة المصابيح ـ بيروت ١٩٧٠ ٠

هؤلاء ثمانية وأربعين استطاع أن يتحقق من أسمائهم وترك الباقين فوق الحصر .. وممن ذكرهم علي بن المحسن بن علي التنوخي القاضي وهو من أقرانه وقد لقيه ببغداد وكان له صاحبا وصديقا طول مقامه بها . وأبو زكريا الخطيب التبريز من أعيان القرن الخامس ، والامام أبو المكارم عبد الوارث بن محمد الابهر . والفقيه أبو تمام غالب بن عيسى الانصاري الاندلسي . والخليل عبد الجبار القزويني . وأبو طاهر محمد بن أحمد الانباري . وأبو الحسن علي بن همام ونصر بن صدقة القابسي النحوي الذي رحل الى المعرة فلازم أبا العلاء وقرأ عليه وأخذ عنه وكذالك فعل أبو عبد الله الاصبهاني وله صنف أبو العلاء كتابه « ضوء السقط » شرحا لسقط الزند

كما كاتبه العلماء والوزراء وأهل الاقدار فلم يأبه بهم وأعطى من أراد منهم علما ومعرفة واستفسارا ولم يأخذ شيئا ولا خاف منهم تهديدا أو وعيدا ..

وعندما غيبه الموت وقف على ضريحه ثمانون

شاعرا يرثون ويبكون مرددين مع تلميذه أبي الحسن علي بن همام :

ان كنت لم ترق الدماء زهـــادة
فلقد أرقت اليوم من جفني دما(١)

مؤلفـــاته :

لم تكن عزلته الطوعية ورهنه نفسه لمحابسه الثلاثة قرارا سلبيا نتيجة فشله في بغداد ـ كما قلنا في البداية ـ لا ولا هجرا للناس ويأسا منهم وزهادة

بالدنيا وأهلها .. بل كان ذلك ترفعا عن التماطي اليومي مـــع نوع مـــن أهـــل السياسة والمجتمـــع لا يقدرون المواهب ولا يقربون أصحابها لأنهم خلو منها ، وبالرغم من حرصه على الابتماد ما أمكن عن مثل هؤلاء فقد جعل منزلـــه مقصدا لطلاب العلم وقضاء الحاجات ..

هاذا من جهة ومن جهة أخرى جعل من معتزله

---

(١) اشارة الى ان إبا العلاء كان يحرم ان يذبح له الحيوان ليأكل من لحمه لتزهده ورحمانيته .. انظر : ابو العلاء المعري متأمل في الظلمات ادوار امين البستاني ص ٣٠ .

الطوعي كوة يطل بها على الناس والوجود ومستراحا يطلق فيه لنفسه حرية القول والعمل .. هاذا العمل ماذا يمكن أن يكون لأعمى مثقف سوى التأليف والتصنيف وتسجيل الخواطر.؟..

يد له رحيمة على طلابه وسائليه .. وأخرى له غزيرة على كتابه يملي عليهم ولا يمل الاملاء.. فلا مراجع يعود اليها ولا توقف لعودة الى مخطوطة أو كراس .. الذاكرة الخصبة العجيبة هي المرجع الأوحد يسترفدها فترفده .. حتى ليكاد كتابه ينوءون بما يكتبون .. ثم ناء الزمن بما خلف وصنف .. فضاع أكثر آثاره ..

آثار تجاوزت المائة عدا بين مجلد كبير ورسالة لطيفة ولم يبق من بعضها سوى العنوان .

أما المنشور منها فهو : ١ ـ لزوم ما لا يلزم أو اللزوميات . طبع لأول مرة في بومباي سنة ١٣٠٣هـ ١٨٨٦م . ثم في مصر في مجلدين سنة ١٨٩١ وقد اختار أمين الريحاني بعض اللزوميات ونقلها الى الانكليزية ونشرها في نيويورك سنة ١٩٠٣ بعنوان

« رباعيات أبي العلاء (١) » وكرت بعد ذلك الطبعات منها المحقق،وغير المحقق لهاثا وراء الكسب الرخيص ··

يقول أبو العلاء في المقدمة : « ان القافية تلزم لها لوازم لا يفتقر اليها حشو البيت » ·· وبتعبير آخر : يكرر أبو العلاء في القافية حروفا لا يفرض تكرارها عادة في قواعد العروض · وقد جاءت قصائد الكتاب مرتبة على حروف الروي ترتيبا ابجديا · ولكل حرف أربع حالات من الحركات الثلاث والسكون · يقول المؤلف : « وقد تكلفت في هاذا التأليف ثلاث كلف : الأولى انه ينتظم حروف المعجم عن آخرها،والثانية أن يجيء رويه بالحركات الثلاث والسكون بعد ذالك · والثالثة انه لزم مع كل روي فيه شيء لا يلزم ، من ياء أو تاء أو غير ذالك من الحروف » · وفي الكتاب ــ عدا ذالك التكلف الثقيل ــ عظات وتأملات وحكم بالفة حبذا لو أطلقها أبو العلاء على سجيتها وكما فاض بها الخاطر أو « حسب ما سمحت به الغريزة » كما

---

(١) جبور عبد النور في دائرة المعارف ج٤ ص ٤٦٤ ابو العلاء المعري ــ اثاره ·

قال (١) ٠

وفي هاذا الكتاب تبرز آراء ومواقف المعري النهائية من الكون والكائن والمجتمع ٠ ذالك لأن الكتاب أملي في شيخوخة المعري أو على الأصح في ابان نضجه الفكري ٠

٢ ــ سقط الزند :

نشر بالقاهرة سنة ١٨٦٩ ثم نشر مع « ضوء السقط » بشرح شاكر شقير في ٣ أجزاء ببيروت سنة ١٨٨٤ ثم في مصر سنة ١٩٤٥ في ٤ أجزاء (٢) ٠ يضم الكتاب ثلاثة آلاف بيت من الشعر مما قاله أيام صباه واقباله على الحياة ٠ وهو من أجود شعره على رأي ابن العديم (٣) ٠

ثم شرحه أبو العلاء نفسه تحت عنوان « ضوء السقط » ووقف خاصة على الغريب من ألفاظه فشرحها وقربها الى الاذهان ٠

ويلاحظ في مؤلفات أبي العلاء أنها تحمل

(١) المعري ، اللزومات ص ٥ ط٠ دار صادر بيروت بدون تاريخ ٠٠٠
(٢) دائرة المعارف ج ٤ ص ٤٦٤ ٠
(٣) ابن العديم : الانصاف والتحري ص ٥٣٥ ٠

عناوين رمزية غريبة جاءت نتيجة مقدرته على الغوص في أعماق مدلولات الكلمات العربية التي تزخر بها لغتنا ذات الاشارات البعيدة والتعابير المشحونة بالجرس والظلال والايحاء والمجاز ، الامر الذي لا تتأتى معرفته الا لمن كان مثل أبي العلاء تخصصا بأسرار اللغة وتحسسا بمراميها وايحاءاتها وجماليتها التعبيرية والايقاعية بشكل عام ٠ فبدلا من أن يسمي هذا الديوان : شعر الشباب أو بواكير القريحة سماه « سقط الزند » امعانا في التورية والغموض ٠ والسقط هو أول النار الخارجة من الزند ، والزند هو العود الذي يقتدح به ٠ فكأنه أراد أن يقول : انه أول شعاع تألق في سراج شاعريتي ٠٠ وأبو العلاء في هاذه العناوين ـ الرموز يبدو مغايرا لعصره الذي اكتفى بالألاعيب البيانية الجافة ٠٠ هذه الألاعيب لم يسلم منها أبو العلاء في اللزوميات لاكنه تجاوزها وارتفع عنها بما أوتي من شاعرية فذة وعمق فهم لأسرار اللغة فلم يتله كغيره بالقشور والأساليب الشعرية الروتينية الباردة ٠٠ ولم يقف عندها ٠٠ وهي وان كانت تلح عليه وتشد به الى متاهاتها الا أننا نلاحظ أنه يحاول التهرب منها والعودة الى صفاء شاعريته

الأصيل •• كلما سنحت له الفرصة وبعد عن آفة التقليد والمباهاة ••

أما موضوعات السقط فهي عادية روتينية تدور على ما دارت عليه قصائد شعراء عصره من مدح ورثاء وفخر ووصف وغزل وشكوى ودرعيات •• وكان أبو العلاء بعد تخطي سن الشباب يكره سماعه وكان يقول ـ كما ذكر تلميذه التبريزي ـ : « هاذا ديوان مدحت به نفسي فأنا أكره سماعه (١) » •

٣ ـ رسالة الغفران :

نشرت لأول مرة في القاهرة سنة ١٩٠٧ وقف على طبع وتصحيح النصف الاول منها وهو ١٧ ملزمة الشيخ ابراهيم اليازجي بتكليف من أمين هندية الناشر • لكن المنية عاجلت الشيخ ابراهيم فأتم تصحيح الباقي أحد علماء الأزهر (٢) ثم نشرت مختصرة مشروحة بعناية كامل كيلاني بمصر سنة ١٩٢٥ • وفي مطلع الخمسينات قامت الاديبة المحققة المعروفة الدكتورة عائشة عبد الرحمن«بنت

---

(١) ابو العلاء المعري متأمل في الظلمات لادوار امين البستاني ص ٥٣•
(٢) دائرة المعارف ج٤ ص ٤٦٤ •

الشاطيء» بنشرها في طبعة علمية محققة بمصر (١٩٥٠) • وللرسالة ملخص واسع باللغة الفرنسية مع ترجمة بعض المقاطع ظهر في باريس سنة ١٩٣٧ بعناية ميسى Maïssa • أما سائر المستشرقين فقد عنو بالرسالة عناية فائقة • مثل نيكلسون وسواه لاكنهم ظلو دون مستوى التحقيق العلمي الكامل للنص (١) •

موضوع الرسالة :

أملى أبو العلاء هاذه الرسالةالجوابية وقد مضى على عزلته قرابة ربع قرن • وكانت شهرته قد طبقت الآفاق العربية وراسله الكثيرون مستفسرين ومستطلعين خصائص هاذا الفكر الجديد والشاعرية الفذة • من بينهم « العلامة الفهامة المحدث علي بن منصور الحلبي الملقب المعروف بابن القارح (٢) »

---

(١) ابو العلاء المعري : متأمل في الظلمات ص ٥٤ •

(٢) كذا في النسخة التيمورية • تحت عنوان : رسالة لبعض الفضلاء الى ابي العلاء المعري • ادب تيمور • والمحققة من قبل الدكتورة بنت الشاطيء •

الذي وجه من حلب الى أبي العلاء في المعرة رسالة يستوضحه فيها بعض مسائل فقهية . وبدلا من أن يجيبه برسالة عادية مباشرة جعله يصعد الى السماء ويرى بنفسه كيف جرت وتجري الاحكام الالهية . ويسأل ابن القارح المخلدين في الجنة : بم غفر لكم ؟ والمخلدين في النار : بم لم يغفر لكم وماذا جنيتم ؟ ولكثرة ما ورد من أسماء الغفران ومشتقاته سميت الرسالة « رسالة الغفران » وهي من حيث التبويب قسمان : الاول استعراض حسي للجنة وأنواع اللذات فيها . والثاني اجابات مباشرة عن أسئلة ابن القارح .

في القسم الاول تحتشد جميع خصائص أبي العلاء الاسلوبية الحسية والسخرية الحقيقية أو التهكم الملغوز ، وخصائص التفكير العلائي المتميز بالعمق وبعد الاشارة الى جانب تنوع الثقافة لديه وتعدد مصادرها وغزارة المعلومات الادبية التي تختزنها حافظته العجيبة ، فيروح على لسان ابن القارح يحاور الادباء والشعراء فيها سواء كانو في الجنة أو في النار : ينقدهم ويصحح آراءهم أو يثني على بعضهم ويبدو أعلم منهم بها ..

أعجب أبو العلاء بشخصية ابن القارح (المولود سنة ٣٥٠هـ) فهو شيخ سبعيني يتغنى بالزهد والزاهدين والصحابة والصالحين •• أفنى عمره في ما لا يصلح نفسه ويضرب في الارض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا يتبعه الخوف من مكان الى آخر ويتعقبه هزء الناس به : رفيقه يسرق له رسالة كلف بحملها وابنة أخته تنهب له مالا جهد في كسبه ، والذاكرة تخونه فتنسى ما قطع من المسافات في جمعه وأمضى الليالي في عده وحفظه ••

وجد المعري الفرصة سانحة حين وجه اليه ابن القارح رسالته المشهورة ليلهو به بعض حين •• وان يكون لهوه به عنيفا وشاقا يجشمه فيه ما لا يطيق الشيوخ القيام به الا في العالم الآخر فأفرغ المعري على لسان ابن القارح كل ما في جعبته من عويص الألفاظ وبعيد المعاني وعميق المغازي وجارح النقد بأسلوب ساخر طال وتشعب حتى غدا كتابا كبيرا هو « رسالة الغفران » كما أفرغ كل ما يضيق به من الناس وسخافاتهم والدنيا وهمومها فارتفع به خياله الذي ضاق هو الآخر بالأرض •• الى السماء •• الى العالم الآخر « فجمع الناس في ابن القارح » على حد تعبير أستاذنا الدكتور جبور

عبد النور ، « ونقل الارض الى السماء وجاء بأثر تتجلى فيه جميع العناصر الفنية التي تجعل من صاحبها شاعرا ملهما يخرج في صوره وأخيلته من الدائرة التي نشط ضمنها شعراء العربية (١) » ٠

وقد نوهنا ـ في المقدمة ـ بما لهذه الرسالة من خصائص فنية منها على سبيل التذكير :

أ ـ النفس المسرحي التمثيلي الذي لم يعرف عند فحول المطولات ٠٠

باء ـ الخيال الدراماتيكي الواسع الذي أعان أبا العلاء على الشطح والانتقال ببطله « ابن القارح » الى « العالم الآخر » وتركه يتصرف بحرية تامة ٠٠ ولولا ثقل المماحكات اللغوية والمحاورات البيانية والوقوف عند كل كلمة شاردة ٠٠ لولا هذه « الاستاذية » البلاغية عند أبي العلاء لجاءت « رسالة الغفران » آية في الابداع المسرحي الذي طالما افتقر اليه الخيال العربي والشعر العربي ٠

٤ ـ رسائل أبي العلاء :

نشرت في بيروت مشروحة بقلم شاهين عطية

---

(١) دائرة المعارف ج٤ ص ٤٦١ ٠

سنة ١٨٩٤ ثم نشرت عن مخطوطة محفوظة في مكتبة ليدن مع ترجمة انكليزية بعناية المستشرق المعروف مرغليوث ـ اكسفورد سنة ١٨٩٨ ٠ وأمامي كتيب : رسائل أبي العلاء المعري مع شرحها لجامعها خليل الخوري وناشرها دار القاموس الحديث ـ بيروت بدون تاريخ ٠٠٠ وهي عن نسخة مشروحة بقلم المعلم شاهين عطية وباشراف ومراجعة الشيخ أحمد عباس الازهري الشهير ، بتاريخ ١٨٩٤ وتتضمن الرسائل في ما تتضمن رسالة الى خال المعري أبي القاسم في حلب عند مغادرته بغداد ، ورسالة الى أهل المعرة قبل قدومه اليهم ٠

٥ ـ رسالة الملائكة :

نشرت في طبعات غير كاملة في مصر ولينينغراد ٠ ثم نشرت كاملة ومحققة ومشروحة ٠ قام بذالك محمد سليم الجندي ٠ دمشق ١٩٤٤ ٠

٦ ـ ملقى السبيل :

نشرها حسن حسني عبد الوهاب في مجلة المقتبس ٠ دمشق ١٣٣٠هـ ٠

٧ ـ رسالة التذكرة :

نشرها مع ترجمة فرنسية غبريال كولن في باريس سنة ١٩١١ ٠

٨ ـ خمس رسائل :

تبودلت بينه وبين داعي الدعاة الفاطمي ٠ نشرت في مصر سنة ١٣٤٩هـ ٠

٩ ـ عبث الوليد :

نشره محمد عبد الله المدني بدمشق سنة ١٩٣٦ وهو تقييم ونقد لشعر البحتري تحدثنا عنه في المقدمة ٠

١٠ ـ الفصول والغايات :

لم يطبع منه سوى جزء واحد نشرته مطبعة مجازي بالقاهرة وحققه « محمود حسن نناتي (١) » سنة ١٩٣٨ وهو عبارة عن مقاطع مسجعة موزعة

---

(١) لعل الاجزاء الباقية دون طبع فيها مآ يسيء الى المعتقدات الدينية ، الا ان ابن العديم مؤرخ ابي العلاء ينفي ذالك بشدة،

على حروف المعجم تقرب من نمط اللزوميات • فيها مواعظ وحكم دينية وتسبيح بحمد الله • وهي أول ما ألفه المعري اثر عودته من بغداد واعتزاله وقد سماه الفصول والغايات رمزا الى نوعين مختلفين من قوافي السجعات التي اعتمدها • والذين اتهموه بأنه يعارض فيه القرآن فعلو ذالك « تعديا عليه وظلما » كما يقول ابن العديم (١) اذ « ان الكتاب ليس من باب المعارضة في شيء » •

١١ ـ رسالة الهناء :

نشرت في مصر سنة ١٩٤٤ تحقيق وشرح كامل كيلاني •

١٢ ـ زجر النابح :

ويرمز بالنابح الى ذالك الكلب البشري الذي كال له التهم جزافا ملصقا به وصمة الكفر والالحاد مما أخذه من ظاهر أبياته • وحين زجره أبو العلاء في هذا الكتاب لم يذكر اسمه امعانا في تحقيره • نشر بعض أجزائه الدكتور أمجد الطرابلسي (٢) •

---

(١) ادوار امين البستاني : ابو العلاء المعري : متأمل في الظلمات ص ٥٥ ـ بيت الحكمة ـ بيروت ١٩٧٠ •

(٢) بالنسبة الى رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطىء نشير الى انه في غفلة من الزمن سطا بعض لصوص دور النشر في احد البلاد العربية •• على حقوق الطبع والنشر والاقتباس العائدة قانونا للمؤلفة ، فصوروها بالاوفست دون استئذان المؤلفة • وباعو منها الالاف المؤلفة !! فتأمل ••

هاذا ما نشر من مصنفات أبي العلاء وهو قليل جدا بالنسبة لما لم ينشر بعد ، (وهو يفوق المائة والعشرين عدا ..) بين رسالة وكتاب وشذرات..

رحلاته :

جاء في وفيات الأعيان : ان المعري قصد بغداد للتثقف والاستزادة مرتين . وكان في الخامسة والثلاثين من عمره ثم عاد اليها بعد عام تقريبا . أما مؤرخوه الآخرون فيجمعون على أنه لم يأتها سوى مرة واحدة ومكث فيها سنة وسبعة أشهر للانخراط في حياتها الثقافية والاجتماعية وحضور نواديها الادبية والاستماع الى ما يدور في حلقاتها من نقاش وجدل علّه يضيف الى ما كان قد حصله سابقا في رحلاته القصيرة الى اللاذقية وطرابلس وحلب وكفرطات (١) وفي المعرة ما لم يكن قد وقف عليه بعد .. لا سيما وان « حاضرة الدنيا » لا تزال تزخر بالكثير من النوادي والحلقات والمكتبات والمؤلفات وكبار العلماء والادباء .

ثم ان الحياة في المعرة ضيقة عليه لسببين :

(١) لعلها مصحفة عن انطاكية كما يرجح المحققون .

ـ اضطراب الحياة السياسية في بلاد الشام : فالحدود الشمالية معرضة للخطر البيزنطي لا سيما بعد زوال حكم سيف الدولة الذي كان حامي تلك الثغور والمدافع ببطولة عنها .. فلا أمل ولا استقرار ، في حين ان بغداد كانت بمأمن من كل هاذا ..

ـ طموح أبي العلاء الذي لا يحد وتصميمه على أن يبرهن للمبصرين والمتربعين على عرش الجاه والعلم انه ليس دونهم كفاية ومقدرة . هاذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، لارضاء نفسه واقناعها بأن مثله لا يقعده عمى مادي . ثم ان بغداد كانت « قطب الرحى » كما يقولون تستقطب كل طالب مجد وشهرة وعلم : ففيها تفاعلت الحضارات الثلاث وتمازجت جميع ثقافات الدنيا .. فمن لم يرها « فكأنه ما رأى الدنيا ولا رأى الناس » على حد قول بعضهم . فكيف لا يزورها أبو العلاء ..

لاكن مفكرنا لم يجد في بغداد بغيته من الناحية العلمية والادبية وان كان قد وجد فيها متنفسا لطموحه وحبه للشهرة وللحياة : يقول في احدى رسائله : « واحلف ما سافرت استكثر من النشب

ولا اتكثر بلقاء الرجال ، ولاكن آثرت الاقامة بدار العلم فشاهدت أنفس مكان لم يسعف الزمن باقامتي فيه .. » الى أن يقول : « والله يسبغ عليهم (أي البغداديين) النعمة ، ويحسن جزاءهم فلقد وصفوني بما لا أستحق ، وشهدو لي بالفضيلة على غير علم .. وعرضو علي أموالهم عرض الجد ، فصادفوني غير جذل بالصفات ولا هش الى معروف ... ورحلت وهم لرحيلي كارهون وحسبي الله وعليه فليتوكل المتوكلون » .

يفهم من هاذه الرسالة ان البغداديين كانو معجبين به مكرمين له ولولا حادثتان جرتا له لطالت اقامته في بغداد ولما كان أسرع في العودة وفي الاعتزال .. ولتغيرت حاله غير الحال ..

الأولى : حين دخل يوما على علي بن عيسى الربعي اللغوي الضليع لعله يأخذ عنه شيئا من النحو .. لاكن الربعي كان رغم علمه وفضله محمقا . فلما رآه صاح به : ليصعد الاصطبل ! وهو الأعمى بلغة أهل الشام .. فخرج أبو العلاء لا يلوي على شيء حزينا .. مكتئبا .. ولم يعد اليه أبدا ..

والثانية وهي الابلغ تأثيرا : كان الشريف الرضي وأخوه الشريف المرتضي معجبين بأبي العلاء مكرمين له ، لاكن هاذا لم يكن لوجه الله، بل لأن أبا العلاء رثا أباهما « الشريف الطاهر » وقد صادف ذالك يوم قدوم أبي العلاء الى بغداد ، فأحب أن يتقرب الى هاذا الوسط الأدبي العالي ٠٠ لم لا ؟ وهو الكفي القادر على المنافسة والمباهلة والتحدي أينما كان ٠٠ غير أن أرستقراطية الشريفين وتعصبهما لكل ما يريانه حقا جعلا القطيعة أمرا محتوما بينهما وبين أبي العلاء ٠

ومما عجل في ذالك أن مر يوما ذكر المتنبي في مجلس المرتضي الذي كان يكره أبا الطيب ولا يرى فيه شاعرا فحلا بعكس المعري ٠ فأخذ المرتضي يعدد عيوبه وعيوب شعره ٠٠ فلم يطق أبو العلاء هاذا الهجوم الحاقد فقال : « لو لم يكن للمتنبي من الشعر الا قوله : لك يا منازل في القلوب منازل ، لكفاه فضلا وشرفا ٠ فغضب المرتضي وأمر بأبي العلاء فسحب برجله (أو سحل) وأخرج من مجلسه ٠ وقال للحاضرين : أتدرون أي شيء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة ؟ فان لأبي الطيب ما هو أجود منها لم يذكره !

فقيل له : السيد النقيب أعرف ! فقال : أراد قول المتنبي :

واذا أتتك مذمتي مـن نـاقص
فهي الشهادة لي بأني كامل ..

لولا هاتان الحادثتان وأمثالهما من تعرض بعض الأدعياء والمتزلفين لكرامة أبي العلاء تارة بالتجريح وتارة بالتكفير لطالت اقامته في بغداد : المدينة التي أحبها أبو العلاء ولم تحبه هي حبا خالصا ..

طريقة عيشه في معتزله :

رغم الصفعات التي تلقاها أبو العلاء في بغداد ورغم قراره الحاسم بعد ذالك بالعودة الى المعـرة واعتزال الناس ، الا أنه لم يتخل عن مرحه وحبه للناس .. للمساكين من الناس .. لطلابـه .. لطالبي لقائه .. ومعونته .. لا سيما أهل بلدته . فالتشاؤم المزعوم الذي طالما تحدث عنه المؤرخون لم أجد له أثرا لا في حديث أبي العلاء المليء بالدعابة ولا في تعليقاته الملفوزة بالسخرية مـن السخفـاء والحمقى والأدعياء ..

حتى ولا في يأسه من صلاح البشر والمجتمع ، ما

دام هاؤلاء لا يتمردون على واقعهم ويرضون بالحياة الدون ٠٠ كما تمرد هو ٠٠

يقول المصيصي الشاعر : « وربما تسلى الشيخ في بعض أوقاته بلعب الشطرنج(١) ويدخل في فنون الهزل فيقول : « أنا أحمد الله تعالى على العمى كما يحمده غيري على البصر ٠ وقد صنع لي وأحسن بي اذ كفاني رؤية الثقلاء البغضاء » ٠

وقد ذكرو أنه كان اذا نهض لطعامه دخل في سرداب لتناوله بعد أن يصرف خادمه حفظا لوقاره من أن يُساء اليه وهو يأكل على مرأى من طلابه ٠٠ واذا خرج اليهم بعد الاكل ورأوا على جبته بعض أثر للدبس أشارو الى ذالك متضاحكين فيجيبهم متضاحكا أيضا قائلا : قاتل الله النهم ٠٠ حتى في مواقف الجد لا يتخلى عن مرحه ودعابته ٠
قالو : حاصر صالح بن مرداس معرة النعمان اثر حوادث شغب جرت فيها (٢) فتولى أبو العلاء الشفاعة لقومه عند صالح فأسمعه المعري « سجع الحمام » وأسمعه صالح « زئير الأسد » :

---

(١) كان هاذا في بغداد وايام الشباب ٠
(٢) اللزوميات ج١ ص ٤٩٢ تحت عنوان : سوق النفاق ٠

تغيبت في منزلي برهة
ستير العيوب فقيد الحسد

فلما مضى العمر الا الأقل
وهم لروحي فراق الجسد

بعثت شفيعا الى صالح
وذاك من القوم رأي فسد

فيسمع مني سجع الحمام
وأسمع منه زئير الأسد

فلا يعجبني هاذا النفاق
فكم نفقت محنة ما كسد

ألا ترى معي روح الدعابة ـ ولو مرّة ـ تنضح من هاذه الأبيات ؟ ولعل الدعابة نفسها ممزوجة بالشفاعة لأهل بلدته هي التي لمسها صالح هاذا في قصيدة مدحية أخرى ألقاها على مسامعه وكانت سببا من أسباب تصالح الرجلين وقبول الشفاعة ومغادرة صالح المعرة قائلا لأبي العلاء : « قد وهبت لك المعرة وأهلها » ... شيخ يتوكأ على أيامه القليلة الباقية هاذا شأنه مع رجل عسكري يحاصر بلدته، وهاذه روحه .. شيخ كهاذا لا يمكن أن يكون

متشائما عابسا .. جادا .. برما بالناس .. كل الناس .. فكيف به أيام شبابه في بغداد وغير بغداد ..

وسنجد الموقف نفسه والكلام الساخر نفسه في رسالة الغفران حين يلتقي ابن القارح بعض شعراء الجاهلية فاذا بين سؤالهم وجوابهم سخرية ملفوزة ونقد يضج بالفضيحة الضاحكة أو الضحك الفاضح من هاؤلاء ومن قصائدهم ومعلقاتهم وعلى رأسها معلقة امرىء القيس « العجوز الفاجرة (١) » ودع عنك شجار بعض الشعراء في الجنة والغناء ورقص الأوز وبيت الحطيئة وحوار ابن القارح معه الى آخر هاذه المشاهد الساخرة التي تخفي وراءها روحا لا يمكن أن تكون جادة متشائمة عبوسا ..

وانك لتجد الدعابة نفسها لا تزال تلاحق أبا العلاء في أواخر أيامه ، وفي مواقف الجد أيضا : جرت بينه وبين « أبي نصر هبة الله بن أبي عمران » داعي الدعاة الفاطمي مراسلات حول

---

(١) قول المعري في رسالته : « ان قفا بنك على حسنها وقدم سنها لتقر بما يبطل العدل الرضي فكيف بالبغي الانثى قاتلها الله عجوزا ! لو كانت بشرية كانت من اغوى البرية .

أسباب زهد أبي العلاء وامتناعه عن أكل اللحم وتحريمه • وقد تناهى الى مسامع « الداعي » قول أبي العلاء :

غدوت مريض العقل والرأي فالقني
لتخبر أنباء العقول الصحائح

فأجابه داعي الدعاة بقوله : « أنا ذالك المريض رأيا وعقلا وقد أتيتك مستشفيا فاشفني •• ثم انتقل الى حلب وطلب من المعري موافاته اليها •• ولكن أبا العلاء كان قد مات ••

أوردت الخبر ليظهر لك من هاذا البيت ومن رد الداعي عليه ان موقف أبي العلاء لم يكن جادا ولا هو رأيه النهائي في داعي الدعاة •• والا لما كان جواب الداعي ذالك الجواب •• وما رأيك بانسان لا يتخلى عن روحه المرحة ودعابته حتى في آخر لحظات عمره • يقول في رسالته الأخيرة الى داعي الدعاة ، واصفا حاله وما آل اليه من عجز وانهيار : « الآن علت السن وضعف الجسم وتقارب الخطو ، وساء الخلق ••• وصار لفظي من أجل ذالك (أي من خلو فمه من الأسنان) مشينا ، وجعلت سين

الكلمة شيئا فلم يفهم عني سامع ما أقول ٠٠٠ »
يا لها من دعابة مرة ٠٠ ما نكاد نضحك لها حتى نبكي منها ٠٠ على حد قول ألفرد ده ميسيه

أما محابسه : العمى والمنزل والنفس الساكنة رغما عنها في الجسد الخبيث ـ كما يقول ـ فلم تكن ـ على مرارتها ـ مبعثا لأي نوع من أنواع التشاؤم الذي ألصقوه به تجنيا وتسرعا ٠٠ فقد ظل المعري بالرغم من كل فساد عصره ولؤم ناس عصره والصفعات المتتالية التي تلقاها ساخرا متهكما حزينا على الناس لا من الناس ضاحكا من سخفهم وضعفهم أو ظلمهم وكبريائهم (١) ٠

أما كيف كان يعيش أبو العلاء فهنا تكمن حقيقة زهده وقيمته : فالزهد هو أن تترك الدنيا وأنت راغب فيها ، والمال وأنت قادر عليه ٠ ولقد كان أبو العلاء في يسر من أمره ، وفي تعفف عن أخذ أجره ٠٠ كان راغبا في الدنيا ثم رغب عنها وكان قادرا في الحالتين ٠٠ كان انسانيا بين الاناسي ثم صار انسانيا بعيدا عن الأناسي من أجل انسانيته ٠٠ كيلا تضيع أو تهان ٠٠

---

(١) انظر الفصول السابقة ٠

اتصل به نفر من الأمراء يسألونه تشريفهم بتصنيف كتب لهم فأجاب دون أن يأخذ عليها أجرا كما أجاب غيرهم وصنف لهم العشرات من الكتب والتفاسير (١) ٠

كان لا يقبل مالا الا ما يأتيه من أخواله وكثيرا ما رد الفائض منها ٠ ويوزع ما يبقى لديه من دنانير على خادمه ونساخه الملازمين ٠ على ان أبا العلاء لم يعرف الفقر المدقع في حياته كما يخيل للبعض ٠ يقول الدكتور جبور عبد النور في دائرة المعارف (ج ٤ ص ٤٥٧) : « بل عاش ناعم البال في غير ترف ، مؤمن العز في غير اسراف ٠ ولعله كان يتناول بعض العائدات من أرزاق أهله ، ويأخذ ما يقدمه اليه تلاميذه من الهدايا ، ويرفض كل ما يعرضه عليه أصحاب الشأن والنفوذ ٠٠٠ (٢) » ويذكر البديعي في « أوج التحري » ان الشيخ كان يجري رزقا على جماعة يقرأون عليه ولم يقبل لأحد

---

(١) لتفصيل ذلك انظر : ابو العلاء المعري ـ بنت الشاطىء ص ١٥٣ ـ ١٥٤ سلسلة اعلام العرب رقم ٣٨ ٠

(٢) كاتبه رسول المستنصر صاحب مصر فبذل له ، ان اتى اليه ما ببيت المال في المعرة فلم يقبل ٠ راجع الصفدي : نكت الهميان في نكت العميان ص ١٠٥ ٠

هدية ولا صلة، وكيفما دار الامر فان منزله في المعرة لا يبدو لنا ـ على تواضعه ـ صومعة لا يدخلها الهواء ولا الناس ·· وساكنه المعتزل لا يبدو راهبا متنسكا منقطعا عن الدنيا منصرفا الى العبادة والمجاهدة ·· ولا هو مقبل على الدنيا بكل نهمه الأول وحبه القديم ولا هو رافض لها رفضا قاطعا ·· لاكنه كاره لها عاتب عليها لأنها لم تحسن وفادته وهو الكريم الخليق بها ·· أما ناسها فكان بوده لو يبقى معهم كل يوم ··· لاكنهم جنو على أنفسهم حين جنو عليه وتنكرو له، فها هو يتنكر لهم ويهرب منهم الى ··· ذاته يحتضنها والى ··· عقله ، يلوذ به ·· أما البسمة والحنان والحب فأشياء من صميمه حبستها فيه ظلمة الوجود وظلم الموجود وغياب الأب والأم والاحبة الأدنين ·· تحت التراب ·· لكن البسمة والحنان والحب لهم ·· وكل ما فوق التراب ·· سراب ·· فأين يوزع هاذه الشعاعات الثلاث وهي من طبعه لا يملك حبسها ؟ لم يبق الا الحيوان والطير والحشرات والانسان الضعيف والديك المستضعف وأديم الارض يرسلها على هذه الكائنات المستضعفة رحمة وحنانا وحبا ويكون له معها موقف أبوي لا يتغير ·· وهاذا هو سبب

تحريمه الحيوان ومشتقاته لا تلك الدعوى الباطلة بأنه تأثر بالعقيدة البرهمية التي تحرم أكل الحيوان من كل نوع .. أما أديم الارض فمستضعف بدوره .. يداس كل يوم .. وكل لحظة .. فلا أقل من أن نخفف الوطأ عليه .. اذ لعله مركب من رفات الآباء والاجداد .. بل هو كذالك ..

أما الانسان المستضعف فقد خسر وجوده مرتين: مرت يوم ولد ومرة يوم سلبه القوي قيمة هاذا الوجود ..

ومهما قيل عن موارد رزق أبي العلاء في معتزله فقد كان « غنيا عن المال لا به .. » كان كل ما يحتاج الى المال في جسده معطلا .. فلم المال أو لمن ؟ الا ما يقيم الأود ويسد الحاجة اليومية ..

أبو العلاء المثقف :

نسارع الى القول ان أبا العلاء كان ذا ثقافتين مميزتين : ثقافة لغوية وثقافة علمية فلسفية اذا صح التعبير . وتلك كانت سمة العصر على كل حال : لم يكن كافيا أن يكون الشاعر موهوبا لكي

يصبح شاعرا أو يتعاطى مع الشعر • كان عليه أن يتثقف ، فيلم بكل ما يتصل بالشعر من علوم وفنون الى درجة التأليف والتصنيف وهاذا ما فعله قبله بكثير أبو تمام وأبو عبادة أما المتنبي فقد كان قادرا على ذالك لاكنه لم يكن مستقرا ليؤلف أو يصنف •• كان مشغولا عن نفسه والفه وسكنه يطوف في أرجاء الدنيا العربية كل يوم وحين يسكن الى نفسه يفكر في كيف يخرج منها الى ••• المجهول ••• وساعة احتجز في مصر •• حم ومرض •• وهرب ••

أما أبو العلاء فان لم يصنف ويؤلف فماذا يفعل وقد عزم على عزلة لم تكن سلبية في نظري كما يحاول بعض المؤرخين أن يفسروها على أنها يأس من الناس وبعد نهائي عنهم و « تشاؤم » قاتل •• كلا بل كانت عزلة ايجابية مشعة تريد العطاء لمن يستحق العطاء وتحجب العطاء وتمنع اللقاء عمن هرب منهم في بغداد وغير بغداد من التافهين والحاسدين والثقلاء •• لم ينسحب أبو العلاء نهائيا من الدنيا،والا لأغلق بابه في وجه كل طالب وتنسك في كهف لا يغادره •• أو عمود لا يهبط منه

الا ليصعد اليه مترهبا متنسكا لا يريم (١) أو كالغزالي الذي سيعتكف ويتصوف في بيت المقدس ساترا وجهه بعباءته ليشاهد أنوار الربوبية وأعلاج الصليبيين يسومون بلاد حجة الاسلام سوء العذاب (٢) ٠

كان منسجما مع نفسه ـ اذن ـ قبل العزلة الطوعية وبعدها ـ كان قبلها مقبلا على الدنيا شغفا بها ٠٠ وكان بعدها مجاهدا كبيرا من أجل تخفيف هاذا الشغف وكبح ذالك الاقبال ٠٠ كان مع نفسه في مجاهدة يومية عز نظيرها عند الزهاد المرتاضين ٠٠ وبين رياضة ومجاهدة دامتا نصف قرن ٠٠ سقط الجسد موهون القوى دون احراز نصر نهائي ٠٠ لقد لعن أبو العلاء الدنيا مرارا وصب عليها جام نقمته لاكن ذالك كان لشدة حبه لها وفرط تعلقه بها ٠٠ كانت أمامه كغانية لعوب فتنته بسحرها وجمالاتها ٠٠ لاكنها كانت دون مستواه ٠٠ كانت بلا عقل ٠٠ فلعنها لعنة عاشق

(١) كالراهب سمعان العامودي مثلا ٠

(٢) وحسنا فعل حين عاد عن تصوفه الاول فلبيا « نداء الاهل والولد » والجاه والشهرة والتعليم في نظامية بغداد وتركيز دعائم الاشعرية!!

ـ المؤلف ـ

فشل في حبه وراح في مجاهداته يقهر ما فطر عليه من شغف بها ..

تقول بنت الشاطيء : « وهو حين انسحب منها اثر عودته من بغداد لم يكن يبغي أكثر من الظفر براحة اليأس منها بعد أن عزت عليه راحة الامل فيها .. » ولأبي العلاء نفسه أقوال هي ذوب وجدان .. وعصارة قلب هائم بحب هاذه الفاتنة : جاء في « الفصول والغايات » (وهي كتاب أملاه اثر عودته من بغداد واعتكافه) : « انما أنا رجل بلي بالصدى .. لا يجد أبدا موردا فهو ظمآن أبدا .. أيتها الدنيا البالية ما أحسن ما حلتك الحالية والنفس عنك غير سالية . بي طب ـ داء .. فأين استطب وأنا تحت حب الدنيا محب ـ رازح ـ أثقلني فأنا مكب ... الى أن يقول : « ان أسفي على الدنيا طويل .. أحب الدنيا كأنها تحبني .. والغريزة عن الرشد تذبني .. أحب الدنيا وآلتها ليست في .. وقد يئست من بلوغها واليأس مريح .. فالام التشوف والضلال ! .. » .

وقال في اللزوميات :

ولا تبدين الزهد فيهـا فكلنا
شهيد بأن القلب يضمر عشقها

لاكنه زهد فيها وكان في زهده مجاهدا :

أيها الدنيـا لحاك الله مـن ربة دل
ما تسلى خلدي عنك وانظن التسلي

ويمضي على هاذه الوتيرة في مئات مـن أبيات اللزوميات وغير اللزوميات •

كانت ثقافة أبي العلاء الأولى اذن ثقافة لغوية دينية ثم تواكبها الثقافة الأدبية وتلف الثقافتـين جميعا الثقافة العلمية والتأملية الفلسفية • وبتعبير أدق الفلسفة الماورائية الميتافيزيكية •

أما لماذا الثقافة اللغوية الدينيـة أولا ، فلأن واقعا خاصا قد فرض عليه ذالك : كونـه أعمى والأعمى يتميز بذاكرة حافظة قادرة على الالتقاط والاختزان ، وبقـدرة على التحليـل والتعليـل والربط • ثم كونه في كنف أب مثقف ثقافة لغوية وفقهية تتميز بأبوة رحيمة حرصت على تعليـم الطفل وتقويم لسانه لتعوض عليه ما سلبه ايـاه القدر من نعمة البصر ••

فشب أبو العلاء كلفا بالكلمة شغفا بالعبـارة والفقرة والسجعة والجرس الموسيقي وسرعان ما برز صاحب مدرسة لغوية تخالف أو تبذ مدرستي الكوفة والبصرة الشهيرتين (الكسائي وسيبويه) وما أثارتاه من قضايا لغوية شغلت علمـاء بغداد والقاهرة وقرطبة زمانا طويلا ٠ حتى اذا عرض لها أبو العلاء جاء بالقول الفصل والرأي الأصح ٠ ظهر ذالك في مصنفه « رسالة الملائكة » الذي يبدو فيه علامة عصره في التحقيق اللغوي ورد الكلمات الى أصولها ونقد ما جاء عن السلف نقد خبير بصير ٠٠ وهو في هاذا الميـدان انقلابي متجدد يكـره الوقوف عند القواعد القديمة ولو جاءت من كبار واضعيها كابن السكيت وسيبويه ، بل يتعدى ذالك الى النقد والتصحيح بأسلوب ساخر مشوق لم يتخل عنه المعري ـ كمـا ذكرنـا ـ حتـى في مواقـف الجد ٠٠ (١) ٠

---

(١) هل نقول : « يا رضو لنا اليك حاجة ٠ او نقول : يا رضو فيضم الواو ، فيقول رضوان (ص) : ما هاذه المخاطبة التي ما خاطبني بها احد قبلكم ٠ فنقول : انا كنا في الدار العاجلة نتكلم كـلام العرب ٠ وانهم يرضون الاسم الذي في اخره الف ونون فيحذفونهما للترخيم ٠ (رسالة الملائكة ص ٣٥) انظر دائرة المعارف ج ٤ ص ٤٦٠ ٠

ودع عنك رسالة الغفران التي وان أثقلتها فنيا المجادلات اللغوية ، الا أنها أظهرت مقدرة المعري العجيبة في تتبع شوارد اللغة وقواعدها ٠ ومعرفته الموسوعية لأدق أصولها وأعتى أسرارها ٠ حتى قال عنه منصفوه كابن الجوزي والبديعي قولا يضعه الى جانب المعجزة ٠٠٠

أبو العلاء والعقيدة :

اذا سايرنا المؤرخين التقليديين والذين لا يكلفون أنفسهم عناء السبر والتحري والانصاف ويلجأون الى ظاهر القول دون باطنه قلنا معهم ــ هاكذا وبمجانية مطلقة ــ ان أبا العلاء كافر ملحد زنديق ٠٠ ولاكننا لا نريد أن نكون ببغاوات تقلد غيرها وتكرر ما قالوه دون نظر أو تدقيق ٠٠

واذا غضب أبو الوفاء بن عقيل وأبو جعفر الزوزني وعبد السلام القزويني ومن تعصبو عليه فلن تغضب الحقيقة ٠ نفعل ذالك ــ اذا وفقنا ــ لا ارضاء لأبي العلاء أو لأي عاطفة معينة بل انصافا للحقيقة التي طالما طمسها هاؤلاء وجرحوها ٠

ثم أي ديانين هاؤلاء الذين يهاجمهم أبو العلاء

باستمرار ويفضحهم ؟! هاؤلاء الذين أصبح الدين في نظرهم سلعة تباع وتشترى ؟ وانقلب جبة وقفطانا يخفيان وراءهما انسانا علقة ، فقد كل مقومات الانسانية وكل قيم الدين ..

لو كان يملك أبو العلاء أسلحة غير تلك التي شهرها في وجه المزيفين لامتشق سيف علي وأبي ذر والحسين وأعمله في رقاب لصوص الدين .. لاكنه كان أعمى البصر نافذ البصيرة سلاحه الوحيد ضميره والأصداء المؤلمة المتراكمة فيه عن أفاعيل زناة الدين ، يملك تلك الكلمة الجريئة الهادرة الصريحة التي تملك أن تنتحر أو تنفجر لاكنها لا تملك ـ لدى الاحرار ـ أن تصبح بخورا يحرق على أقدام الجلادين الذين :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

في زمن رديء يقتل فيه مثل الحسين
ويستخلف فيه مثل يزيد !!

أرى الأيام تفعل كل نكر
فما أنا في العجائب مستزيد
أليس قريشكم قتلت حسينا
وصار على خلافتكم يزيد !؟

والمصيبة ان جميع من تعصبو له أو تعصبو عليه كانو اتباعيين تقليديين لم نستطع من خلال آرائهم فيه أن نقف على حقيقة معتقده : فأية قيمة تبقى لكلام الزوزني حين ينحدر الى مستوى الكلاب في قوله :

كلب عوى بمعرة النعمان
لما خلا من ربقة الايمان ؟..

وعبد السلام القزويني معاصر المعري الذي لفق قصة حواره معه واليك ملخص هاذا الحوار القصير الملفق :

المعري : أنا لم أهج أحدا قط ..
القزويني : صدقت الا الانبياء !
المعري : ....

وحوار ملفق آخر على لسان أحد الحاقدين ويدعى القاضي المنازي . أما مصدر التلفيق فواحد : الصفدي وكتابه : نكت الهميان !

القاضي المنازي : اسمع الناس يشككون في دينك وسلامة عقيدتك .

المعري : ما لي وللناس وقد تركت دنياهم •
القاضي : وأخراهم ؟
المعري : وأخراهم •• وأخراهم •••

كل هاذا العواء أو هاذا الافتراء لا يستحق الوقوف عنده :

أولا لأنه ظاهر التهافت • وثانيا لأنه لا ينسجم مع حقيقة الايمان العقلاني والوجداني عند أبي العلاء الذي طالما خلا الى ربه فناجاه بأحر الدعوات وأصدق الصلوات في قصائد وشذرات ابتهالية صادقة رائعة •

يقول أستاذنا الدكتور جبور عبد النور : « وليس كالمعري مصليا وواعظا أفاد من الكلمة المختارة والسجعة الموفقة والقافية الموقعة في استثارة هاذا الشعور لدى الانسان العابد ، معبرا في كل هاذا عما ورد على ألسنة أئمة الدين • فاستمع اليه يقول في « ملقى السبيل » :

سبح لالهنا الفلك ، وقدس البشر والملك ، والجسم في العفر
يستهلك ، والمرء بالعارفة يملك ، والنهج للآخرة يسلك

سبـــح مـــع الشهـــب كمـــا
سبح ـ من قبل ـ الفلـــك
قدس انســـان على الارض
وفي الجـــو ملـــــك ٠٠
ســـا لـــك شـــيء واذا
أطعـــت فالرحمـــة لـــك ٠٠

أما اذا خبت العاطفة (والايمان عاطفي أكثر منه عقليا) وقوي « عقله » في تفكيره فلا يقبـــل بالتسليم (المطلق) وينكر أقدس العقائد في نظر المجتمع الذي نشأ فيه ٠٠ الخ (١) » ويا له من مجتمع جحود منهار :

العقل فيه ضائع والدين مضيع
والقيـــم فـــاســـدة مقلوبـــة ٠٠

أفلا يحق لأبي العلاء ومن كان مثله ذا جـــرأة متناهية في قولة الحق أن يصرخ في وجـــه مشوهي الدين صرخته المعروفة وأن يشك حتى ٠٠ في الدين نفسه ؟! انها سورة غضب وتنفيس كربة لا أكثر ولا أقل ، من مؤمن عقلاني يريد أن يفهم الدين كما

(١) د٠ جبور عبد النور في دائرة المعارف ج٤ ص ٤٦٢ ٠

يراه هو لا كما يراه الاخرون •• وأن يرى الله بعقله وبصيرته لا بالتقليد أو بالترديد •• لماذا لم يعلنو الحرب على الغزالي حين شك حتى في العقائد الموروثة قائلا : « اني رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء الا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم الا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم الا على الاسلام (١) » فتحرك باطنه الى طلب الحقيقة فظهر له ان العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب •• الخ •• ومعنى ذالك ان الغزالي قد رفض التقليد ليبدأ من جديد واتخذ الشك طريقا اليه • لم لا نضع أبا العلاء على نفس طريق الغزالي : طريق الشك توصلا الى اليقين ؟! فاذا بدرت من أبي العلاء بادرة شك أو كفر أثناء ذالك ، قامت القيامة عليه ولم تقعد بعد •• أما الغزالي الذي شك وأبطل العقيدة الموروثة ولم يؤمن بها الا عن طريق الحدس لا العقل ، والذي عطل العقل حين أبطل السببية الطبيعية بل أنكر حكمة الله وعقله في خلقه الوجود والموجود على أساس تلك السببية لا لشيء الا ليبرر المعجزة •• أما الغزالي هاذا

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٦٣ •

فمعذور ومشكور ومؤمن غيور لأنه ... حجة الاسلام والمدافع عن حياض الدين والعقيدة السلفية الموروثة ..

أما أبو العلاء فملحد كافر وزنديق موتور .. لماذا ؟ لأنه شك حينا (ولم يشك أحيانا) .. لأن زمنه قسا عليه وأحرجه فأخرجه .. ولأن ناس زمانه مسخو وشوهو كل شيء .. وأول ما مسخو وشوهو الدين .. هل ينتظر ممن لا يرى بسوى منظار العقل أن يهادن هاؤلاء ويقبل دينا أصبح ألعوبة بين أيديهم ؟! هاذا يشرق به وهاذا يغرب . هاذا يجعله دين جبر وتعطيل وهاذا يفهمه دين حشوية وتجسيد ، أو دين قبول بالمنكر وارجاء العقوبة الى يوم يبعث المجرمون ..

أبو الطيب ادعى النبوة فلم يكفره أحد وأبو العلاء لم يدعيها ولاكنهم كفروه فيما دون ذلك ..

أبو العلاء صلى وصام وتهجد وأرسل الى السماء ابتهالات .أين منها ابتهال النساك وذكر الصوفيين في خلواتهم ومع هاذا بدعوه وجدفو عليه ..

وتفسير هاذه المفارقات كما تقول بنت الشاطىء وقولها الصواب : « ان أبا العلاء كان نمطا فريدا لا عهد لتلك العصور بمثله ، ومن ثم بقي فيها غريبا لأنه ليس من أهلها وصدقت فيه كلمته :

أولو الفضل في أوطانهم غرباء
تشذ وتنأى عنهم القرباء

لقد رفض حياتهم فحاولو أن يرفضوه ٠٠ « وقعدو في أمر عقيدته وقامو ٠٠ حكو كفره بالأسانيد وكفره من جاء بعدهم بالتقليد » كما قال ابن العديم أحد مؤرخيه المنصفين ٠٠ كل ذالك تشويها لصورة الاديب الحر المناضل ٠٠ لقد استغلو فيه انسانيته وأبوته ورحمانيته فشوهوها أمام الجماهير وقالو لها انه كافر ليبعدوها عنه ٠ وزادوه تشويها حين صوروه عدوا للمجتمع ٠ وتشهد بنت الشاطىء انه ما كان يوما عدوا الا لأعداء المجتمع ٠٠ ونسو انه القائل :

ولو انى حبيت الخلد فردا
لما أحببت في الخلد انفرادا
فلا هطلت علي ولا بأرضي
سحائب ليس تنتظم البلادا

وقالو متشائم يئد الطموح في نفوس الشبـــان ونسو دعوته الى العمل وتمجيد العاملين وغطو على أرستقراطية وأنانيــة أبي فراس حـــين قــال : اذا مت ظمآنا فلا نزل القطر ·· وروجو لزهديات أبي العتاهية الذي نطق بها وهو غارق حتى الاذنين في الترف بقصر الرشيد ··· » ·

المصيبة أو المأساة عند أبي العلاء انه شاعــر وانه حساس ·· وانه ذو عقل ·· وانه في قرن لا عقل له ·· ولا دين ···

ثم لماذا لا يعمم الشاعر المتأمل الذي يرى الناس هاكذا في كل عصر وكل جيل ·· انهــا مأســاة الانسانية في كل زمان : مأساة ـ مهزلة : ما نكاد نضحك منها حتى نبكي لها :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة
وحق لأبناء البسيطـــة أن يبكـــو
تحطمنـــا الأيـــام حتـــى كأننـــا
زجاج ولاكن لا يعادلـــه سبـــك

وتعلن عليه الحرب في كل مرة ·· ويكفرونه

في البيت الثاني لأنه ينكر حشر الاجساد !!! ونسو « كأن » •• التشبيهية •• ثم نسو انها زفرة شاعر أمام المصير المدمر ••• ووقفة طالما وقفها الشعراء العالميون أمام المصير الرهيب •• والمجهول المغلق يدقون أبوابه بحرقة واصرار ولا يلقون جوابا •• ولسوء الحظ ـ أو لحسنه ـ أن مكفريه هم دائما رجال دين أو من يدورون في فلكهم ممن ينكرون العقل، مع ان الدين يدعو الى العقل والفكر •• وهاكذا تتضح القضية في نظر أبي العلاء فيحسمها قائلا :

اثنان أهل الارض ذو عقل بلا
دين وآخر دين لا عقل له !!

ولاكنه حسم عاطفي آني سرعان ما نراه ينتقل منه الى المعادلة بين الكفتين : كفة الايمان العاطفي والبرهان العقلي الحسي :

زعم المنجم والطبيب كلاهما :
لا تحشر الأجساد قلت : اليكما :

ان صح قولكما فلست بخاسر
أو صح قولي فالوبال عليكما

ها هنا معادلة جدلية فيها من العبث والسخرية

أكثر من تحديد الموقف النهائي أي الفلسفي الماورائي ...

امام الله :

على ان أبا العلاء أمام واجب الوجود أو الله في أزليته وأبديته ولا محدوديته مقر خاشع خاضع معترف .. يستدل عليه ويؤمن به لا عن طريق الدين والتقليد بل عن طريق العقل : ومبدأ العلة والمعلول ، ودليل العناية :

ضلو عن الرشد : منهم جاحد جحد
أو من يحد ، وهل لله تحديد

مولاك مولاك الذي ما له
ند وخاب الكافر الجاحد

آمن به والنفس ترقى ، ر:
لم يبق الا نفس واحد

ترج بذاك العضو منه ، اذا
ألحدت ثم انصرف اللاحد (١)

---

(١) اللزوميات ج١ ص ٣٤٦ .

فالله اذن غير مستهدف من غمزات أبي العلاء أبدا ولا هو موضوع شك على الاطلاق ٠٠ يسبحه ٠٠ يعترف به ٠٠ يراه في كل شيء ٠٠

أما الدين فلا يناقشه من حيث المنطلق : من حيث الوحي والتنزيل ٠٠ ولكنه حين يشك فيه ـ وقلما فعل ـ فمن حيث التطبيق ومن خلال القائمين عليه ٠٠ بل المتاجرين به ٠٠ فهو يرى بعين البصيرة ابتداء من عصور الاديان الثلاثة وانتهاء بعصره ان هاذه الاديان شيء والديانين شيء آخر ٠٠ يراها ـ في أساسها ـ دعوة الى الحب والتحاب ، والصفاء ، والتصافي ، ونكران الذات وقتل الوحش في الانسان ٠٠ فاذا به يرى العكس ٠٠ يرى الوحش في الانسان هو المنتصر دائما ٠٠ ويرى الأديان وقد تنافرت وتطاحنت مع أنها من مصدر واحد ولغاية واحدة ٠٠ أفلا يحق له أن يتساءل بحرقة ولوعة وسخرية : يا ليت شعري ما الصحيح ؟! بعد ان رأى رجال الدين يكذبون على الله ويكذبون على أنبيائهم ويكذبون على أنفسهم :

فقد كذبت على عيسى النصارى
كما كذبت على موسى اليهود

انه تساؤل انكاري يفجر في كيان الشاعر نقمة مكبوتة .. لا أكثر ولا أقل .. وليس استفهاما موضوعيا ينتظر الجواب ... تساؤل فيه من الرحمة والأبوة والايمان ما فيه ، رغم التشكك الظاهر ...

هاذا موقفه أمام الله والدين ورجال الدين .. وهو موقف عقلاني لا تناقض فيه ولا تكذيب ولا مروق ..

أما الفرق الدينيةوالمذهبية وأقوالهاومعتقداتها المتشعبة الكثيرة فقد كانت لأبي العلاء خواطر حولها ــ لا مواقف ــ والخاطرة بنت اللحظة وحصيلة مزاج عابر تتأثر سلبا وايجابا وفق اللحظة وبمقدار ما يغيب العقل عن التحليل والاستنتاج والربط .. تارة يرى شواهد « جبر » لا يحققه

أرى شواهد جبر لا أحققه
كأن كلا الى ما ساء مجرور

وتارة يرى الشر في أصل النوع البشري
وان رددت لأصلي دفنت في شر تربة ..
وحين يقع في التجسيم لا يكون ذالك منه ايمانا

أو معتقدا بقدر ما هو لمحة عابرة أو استعراض تمثيلي لمختلف الآراء والمذاهب السائدة في عصره .. كأنه يريد أن يدلي بدلوه في كل مذهب وكل رأي ثم يغادره الى غيره معبرا عنه ببيت أو بيتين أو أكثر قليلا .. وكأنه يريد أن يتلهى في عزلته تلهيا فكريا يداعب هاذا ويغمز من قناة ذاك .. ثم ينتهي فاذا هو : لا أشعري ولا معتزلي .. ولا حشوي ، ولا جبري .. ولا أرسطاليسي .. ولا برهمي .. ولا علوي .. ينتهي كما بدأ .. أصيلا .. متفردا محتضنا لذاته .. لائذا بعقله .. سابقا لزمنه .. والكل بعد ذلك هباء وهراء :

وزهدني في الخلق معرفتي بهم
وعلمي بأن العالمين هباء

فلا تقليد .. ولا عدوى .. حتى في التثاؤب : يتثاءب وحده وعلى طريقته :

تثاءب عمر اذ تثاءب خالد
بعدوى فما أعدتني الثؤباء ... (١)

ولن تجده فيلسوفا الا في هاذا .. فاذا كان التفرد وتخطي الزمن والحداثة ورفض التقليد

---

(١) وهو يرمز بالتثاؤب الى التقليد الاعمى طبعا .

والسخرية من كل زيف وانحراف والتعبير عن كل ذالك بالكلمة الحرة المتحررة الموهوبة والموقف السليم والسلوك القويم ... اذا كان كل هاذا فلسفة فأبو الملاء فيلسوف وفيلسوف رائد ..

واذا كان التأمل البعيد واستشفاف ما وراء الحجب الصفيقة والقيم المتوارثة وساول كل ذالك تناولا انسانيا رحيما .. واذا كان الحلم بمجتمع عقلي لانسان عاقل يبنيه على الحب والفضيلة .. واذا حلم طويلا بهاذا وأراده بكل جوارحه وامكاناته ثم رأى الحلم ينقلب واقعا فاجعا حيث لا أمل لما تمناه ولا ظل .. وراح يستنتج ان كل حلم بانسانية صالحة هباء وبمدينة فاضلة هراء .. والحياة مجتمع شرور ومستقر أوهام .. بل هي غابة تسرح فيها الوحوش من كل نوع ... حتى اذا تجمعت كل أسباب الفاجعة أمام عينيه (وللقلب الشاعر عينان) راح ينفض يديه من حلمه الأثير وبدأ يتعاطى مع الفاجعة نفسها منطلقا ــ في أقواله وأفعاله ــ منها ، مغنيا آلامه في نشيج مرير معلنا : ان لا أمل ولا بعث ولا قيامة .. والحل ؟ الحل في ايقاف النزف .. والامتناع عن القذف في رحم الحياة .. كيلا لا تلد المأساة من جديد .. وهنا

٠٠ يبرز شبح المرأة ٠٠ التي قدسها أما ومربية ٠٠ وتفنى بجمالها ـ ذات يوم ـ في بغداد وأقبل على الدنيا من أجلها ٠٠ ها هو يراها مصدر الحياة في دورات تجددها اللامتناهية معتبرا اياها مسؤولة فيصب عليها لعناته طالبا عدم اتخاذها زوجة كيلا تلد البنين والبنات ٠٠ اذ ما دامت الحياة شقاء في شقاء ٠٠ وما دامت المرأة سر هاذا البلاء فلِمَ حياتها ولِمَ اتخاذها مصدرا للحياة وها هو يبدأ بنفسه فلا يتزوج كيلا ينسل ٠٠ ولا يسهم في تجدد المأساة ٠٠

اذا كان كل هاذا فلسفة فأبو العلاء فيلسوف كبير ٠٠٠ ولتتخذ الحياة مجرى آخر وليكن العدم أفضل منها ٠٠ ما دامت قد جرحت كبرياءه وأذلت عنفوانه وحطمت حبه وقلبه ٠٠ ويا مرحبا بالموت بعد طول مغالبة ومكابدة ومعاناة ٠٠ لاكن أشواقه الجريحة لن تموت وصباباته الملتهبة لن تكبت الا الى حين ٠٠ وها هي تتجسد ـ في منتصف المجاهدة ـ وقبل الرحيل بربع قرن ٠٠ في رسالة الغفران ٠٠

اذ ما هي رسالة الغفران ان لم تكن متنفسا رحبا للاشواق الدفينة والرغائب المكبوتة في أعماق هاذا الزاهد المجاهد الذي انتصر على الدنيا بعد حب

واقبال لاكن لواعجه لم تمت (١) وأشواقه لم تزل ولم يخف أوارها في سويداء قلبه • وها هي تجد مستراحا لها ومقيـلا في العـالم الأرحب : عالـم الآخرة : ها هي الأماني الموءودة وصبابات الشباب الدفينة يلهبها صدى الشوق المغلول وصليل القيد الكثيف الذي كبل نفسه بالحرمان الثقيل •• ها هي وقد أطلق لها أبو العلاء العنان في حلم عجيب من أحلام يقظته أعان على تحقيقه في رسالة الغفران خيال أعجب ونفس تواقة الى عهودها الأول •• الى حقيقتها المحبة المقبلة اللاهية والتي حال العالـم الاصغر والدنيا العاجلة من تحقيق أقانيمها الثلاثة (محبة ــ اقبال ــ لهو) فاذا بها تحياها من جديد وعلى الصورة التي أرادها لها حرمانه المسيطـر وعزلته القاهرة •• فمن جحيم المحابس في المعرة الى جنة عرضهـا السماوات والارض تعج بالحركـة وتصطخب بالحياة : عراك ، خصومة ، تشابـك بالأيدي ، ملاحاة ، شتيمة ، رحلات صيد ، نزهات، خمر ، نساء ، أطباق لحوم ، حور عين (يسحرن ابن القارح لاكنه يميل عنهن لعلمه انهن من نساء

---

(١) انظر ابو العلاء المعري د• عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطىء ـ ص ١٧٦ اعلام العرب رقم ٣٨ •

الدنيا ...) .

كما تمج جنة الغفران بحركة أخرى هي الحركة النفسية التي لا تقل صخبا وعنفا من الحركة الحسية : فمن اضطراب نفوس المحرومين ، الى حنين الموعودين الى خوف وحذر واغراء وانتظار وانفعال الى ... ويلف كلتا الحركتين نقد وسخرية علائيين بارعين . اليك مثلا واحدا على ذالك : يمضي بابن القارح ملك من ملائكة الجنة الى شجر الحور ، فيكسر ثمرة فتخرج منها حورية باهرة الحسن ، فيسجد اعظاما لله القدير ، ويخطر له وهو ساجد ان هاذه الحورية على حسنها ، ضاوية نحيلة ، فيرفع رأسه وقد صار من ورائها ردف ضخم يهوله . فيسأل الله تعالى أن يقصر عودها على قدر معين . فيقال له : « أنت مخير في تكوين هاذه الجارية كما تشاء » ..

لقد أصبح ابن القارح حر الارادة غير مجبر كما كان يعتقد في الدنيا وان الله هو الذي أراد له ذالك (لاحظ النقد الديني) كما أصبح خبيرا بمقاييس الجمال وقد بدا كأنه أعرف بها من ربه ... لفضوله وحرصه على أن تكون له جارية حوراء ممشوقة القد لا عيب فيها ..

هاذا مشهد من مشاهد جنة أبي العلاء القابع في سرداب المعرة المظلم ، مشهد مسرحي حسي يجسد اللذة ويداعب الجمال ويصحح المفاهيم والقيم ٠٠ الادبية والدينية ٠٠ هاذا الأعمى الذي طالما حمد الله على العمى كما حمده غيره على البصر ، لا تجد في جنة « غفرانه » عاهة ـ من أي نوع ـ لقد انقلب الجميع شبانا أماليد أو حورا عين ٠٠ لعله قانون التعويض مرة أخرى ، وتبلغ بأبي العلاء سخريته في الرسالة الى درجة يخيل لنا معها بأنه لا يؤمن بكل ما رآه ابن القارح في الجنة أو النار من مواقف وأوضاع وأحكام، لا سيما حين نربط بين سخريته ونقده هنا وبين بعض أبيات اللزوميات والفصول والغايات التي يظهر فيها الشك والسخرية وعدم الاطمئنان جليا واضحا ٠

لاكننا نقول ان ما يظهر في رسالة الغفران من سخرية وشك وتجريح ما هو الا امعان بازدراء هاؤلاء الأدباء واللغويين الذين لقيهم ابن القارح في الجنة ووجدهم لا يستحقون ذالك المقام الرفيع اذ وجدهم لا يزالون على حمقهم وسخفهم وتخاصمهم ، وليس شكا في الذات الالهية : في الرسالة عبث عقلي وآخر لغوي وآخر نقدي أدبي

لا أكثر ولا أقل •• يعوض به أبو العلاء عما فاته صنعه في دنياه ••

وهو في كل ذالك العبث يأتي بالممتع حقا •• وهاذا من غرائب فكر المعري وأسلوبه (١) •• يملأ كيان هاذا المحروم بكل ما اشتهى ويعوضه عن كل ما فقد •• ولم يكن أبو العلاء بحاجة الى كل هاذا الخيال العريض ليصف لنا ما تمناه وأحبه في الحياة بل نراه يصرح قبل « الغفران » وبعدها بأنه أحب النساء والاطفال ، والزواج وانجاب البنين والبنات ولاكنه أقلع عن كل ذالك وكرهه لأنه هو « الخسيس » الناقص الآلة •• ولأنه لا يريد لهم يتما أو ثكلا أو أن يكونو مصدر عقوق :

لو ان بني أفضل أهل عصري
لما آثرت أن أحظى بنسل
فكيف وقد علمت بأن مثلي
خسيس لا يجيء بغير فسل ! ••

---

(١) يضيق المجال هنا في سرد روائع فكر وفن ابي العلاء في رسالة الغفران • فالافضل الرجوع اليها ومطالعتها برمتها •

المؤلف

ومن رزق البنين فغير ناء
بذالك عن نوائب مسقماتِ

فمن ثكل يهاب ومن عقوق
وأرزاء يجئن مصمماتِ

وينقلب السحر على الساحر ويصبح هاذا المحب كارها وهاذا الأب مؤثرا العقم على الايلاد والعدم على الوجود :

أرى ولد الفتى عبئا عليه
لقد سعد الذي أضحى عقيما

فاما أن يربيه عدوا
واما أن يخلفه يتيما (١)

واما أن يصادفه حمام
فيبقى حزنه أبدا مقيما ..

وتراه لا يفتأ ينفي زهده ويلح على النفي .. فهو ليس بزاهد بمعنى التنسك والانقطاع عن الدنيا .. انها مجاهدة .. محاولة قهر للرغبات

---

(١) انظر : ابو العلاء المعري د. عائشة عبد الرحمن ص ١٨٠ وما بعدها . سلسلة اسلام العرب رقم ٣٨ .

التي تزدحم في صدره .. وما أغزرها ، وللأماني العراض التي تملأ كيانه ، وما أكثرها .. ذالك لأنه كان في صراع دائم مع نفسه :

مهجتـــي ضـــد يحـــاربنـــي
أنا مني كيف أحترس !..

فكيف يكون زاهدا مستسلما :

وقال الفارسون حليف زهد
وأخطأت الظنون بما فرسنه
ورضت صعابآمالي فكانت
خيولًا في مراتعها شمسنــه
ولم أعرض عن اللــذات الا
لأن خيارهــا عنـــي خنسنه

وحين بلغت به المكابدة أقصى مداها والمجاهدة أقسى مراتبها وجد الخلاص من كل هاذه المعاناة بالموت .. والموت دون سواه .. وبدأ طيفه يراوده عن منامه ويقض عليه مضجعه الخشن .. ويزخر به شعره .. كل شعره .. حتى انه فكر يومـــا بالانتحار « لولا انه أشفق من التبعة وخاف غوائل

السبيل بعد الموت .. » (١)

وهو يشير الى ذالك في رسالة الغفران : « قد كدت الحق برهط المدم من غير الاسف ولا الندم ، ولكنما أخشى قدومي على الجبار .. » (٢) فقد مل الحياة وطال به العمر .. فلم العيش دون آلة العيش ؟.. ولم الصراع والكبت والحرمان .. ما دام الانسان مقودا برغمه الى البلى .. ولم لا يطلبه الانسان ويسعى اليه بدلا من انتظاره في كل لحظة .. حسبه لذة الانتصار على الموت بدلا من مرارة الاغتيال .. ولكن .. ليكن النصر للموت .. ولوعة انتظاره الطويل .. وليكن للشاعر الكبير نصر آخر هو أقوى من الموت وأبقى من العدم :

نصر تجسيده أملا يرجى وغاية تستطاب ...
نصر غنائه والهذيان به وتعميق الاحساس بمحنته .

وحين رأى أمه رثى نفسه .. وحين رثى أباه رثى آماله وأمانيه .. ومن خلال مراثيه كان يرثي ـ في الواقع ـ الانسانية كلها .. هاذه الانسانية

---

(١) ابو العلاء المعري د. عائشة عبد الرحمن ص ١٨٦ سلسلة اعلام العرب رقم ٣٨ .

(٢) رسالة الغفران ..

التي لا تملك مع الموت الا أن تغيب فيه كأن لم تكن .. ولا يبقى منها ما يتحدى الموت سوى : الفن ... وأبو العلاء كان من بين الخالدين .. لأنه كان فنانا كبيرا ...

أبو العلاء الأديب الملتزم :

عندما قلنا ان شيخ المعرة لم يكن منتميا الى عصره بمعنى الرفض والتنكر للقيم السائدة والتفرد، بل الى عصر آخر تحترم فيه انسانية الانسان وتقدر فيه المواهب حق قدرها لم نكن نقصد انه غير منتم الى مجتمعه وشعبه وأمته . حتى وهو ينقد القيم ويهجو الدنيا ويحقر الانسان كان يهدف الى اصلاح المعوج واخراج الانسان من حيوانيته وأنانيته اذا كان حاكما . ومن ذله وهوانه اذا كان محكوما مستضعفا ..

وبالرغم من عزلته وقسوته على جسده لم يكن هاربا ولا ناجيا بنفسه ولا ناسيا هموم أمته ومجتمعه . بل على العكس أصبحت أبوته أكثر اشراقا وحنانا وبات متحررا من علاقاته وانتماءاته، فيما لو ظل بين الناس . أصبح طليق التأمل نافذ

البصيرة قادرا على التمييز والتشخيص ، حرا « من قيود الرغبة والرهبة » على حد قول بنت الشاطىء لا يخاف حاكما يحدد اقامته وقد حددها قبله ‥ ولا يخون حقا التماسا لرزق أو جاه ‥ ولا يلجم لسانه رياء وزلفى ‥ فهو ما باع الدنيا ـ على تعلقه بها ـ الا ليشتري كرامته ، وحرية رأيه وصدق كلمته ‥

المنطلق راسخ الاركان ‥ والرسالة جاهزة ‥ والأبوة ناضجة ‥ وحب المستضعفين في دمه ‥ والعصر الموبوء يرفده بكل صور القهر (١) والظلم والاستغلال ‥ وهو وحده في الميدان : وانهمرت الكلمة الصراح وتفجر الحرف ـ اللهب ‥

مل المقام فكم أعاشر أمة
أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجازو كيدها
وعدو مصالحها وهم أجراؤها

فكم قطعو السبيل على ضعيف
ولم يعفو النساء من الهجوم ‥

---

(١) بالاضافة الى القهر الكوني وجبرية الحياة مجيئا وذهابا ـ المؤلف.

وتراه ـ كالفارابي ـ يدعو الى مدينة فاضلة اهامها نبي عادل ، أو فيلسوف حكيم :

متــى يقــوم امــام يستقيد لنــا
فتعرف العــدل أجبال وغيطــان

فقد عم الشر السهل والجبل . والحجاز « عن الخيرات محتجز » و « تهامة معدن التهم » و « الشام شؤم » و « ليس اليمن في يمن » و « يثــرب الآن تثريب » ... ذلك لأن من يسوس الامور لا عقل له ولا ضمير :

يسوســون الأمــور بغــير عقــل
فينفذ أمرهم ويقال : ساسة ..

أما فقهاء الدين وواعظوه فعاهرون ماكرون .. يحرمون الخمرة على الناس عند الصباح ويجاهرون بشربها عند المساء فلا خجل ولا حياء :

رويدك قد غــررت وأنــت حر
بصاحــب حيلــة يعظ النســاء
يحــرم فيكــم الصهبــاء صبحــا
ويشربهــا علــى عمــد مســـاء
تحساها ومــن مــزج وجــرف
يعــل كأنمــا ورد الحســاء

يقول لكم غدوت بلا كساء
وفي لذاتها رهن الكساء ! ..

واذا كان المصلي يقيم الصلاة ليستر شروره وآثامه .. فترك الصلاة أفضل ...

اذا رام كيدا بالصلاة مقيمها
فتاركها عمدا الى الله أقرب ...

وسكنى الصوامع ليست دليلا على النسك والتقى :

لعمرك ما في عالم الارض زاهد
يقينا ولا الرهبان أهل الصوامع ...

وشكوى المظلومين تنقلب أدعية حرى يصعدونها الى السماء فتستجاب سريعا :

خف دعوة المظلوم فهي سريعة
طلعت فجاءت بالعذاب المنزل
عزل الأمير عن البلاد وما له
الا الدعاء ضعيفها من عازل
— لا شيء في الجو وآفاقه
أصعد من دعوة مظلوم

والخير ليس في صيامك أو قيامك أو تصوفك :

ما الخير صوم يذوب الصائمون له
ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وانما هو ترك الشر مطرحا
ونفضك الصدر من غل ومن حسد

أما المذاهب فهي التي أضعفت الدين وأفسدت اليقين حين وظفت لخدمة الرؤساء :

انما هاذه المذاهب أسبا
ب لجلب الدنيا الى الرؤساء
كالذي قام بجمع الزنج بالبصر
ة والقرمطي بالاحساء

ما الحل اذن وما الدواء في خضم هاذا البلاء ؟ الموت هو الحل ما دام الظلم والدجل والاستضعاف وهدر الكرامات والأنانيات هي البضاعة الرائجة .. وما دام الضعيف المستضعف قابلا قانعا لا يهتز ولا يتحرك ولا يثأر .. فليثأر له وليتكلم بلسانه وليعبر عن وجدانه :

لعل الموت خير للبرايا
وان خافو الردى وتهيبوه
أطاعو ذا الخداع وصدقوه
وكم نصح النصيح فكذبوه

وغير بعضهم أقوال بعض
وأبطلت النهى ما أوجبوه

صحبنا دهرنا دهرا وقدما
رأى الفضلاء ألا يصحبوه

الى آخر هاذه الصيحات والنقمات والانتقادات التي ما كان لغير أبي العلاء أن يصعدها نداء ثائرا حينا .. ودعاء رحيما حينا آخر .. وسخرية مرة أحيانا .. بكل الصدق وكل الايمان ..

أسلوبه الأدبي :

شيء واحد أساء الى أبي العلاء أديبا وشاعرا هو : التحذلق التعبيري واللغوي أو ما يسمى بالفرنسية Préciosité (١) وهو آفة بقدر ما هو ميزة : به يغل الأديب أو الشاعر يدي أدبه

(١) يذكرني ابو العلاء بالاديب المسرحي الفرنسي المشهور جان جيرودو Jean Jiroudou (١٩٤٤) فقد كان متذحلقا ورمزيا معقدا وقد عانينا في ترجمة اهم اثاره الى العربية الشيء الكثير لا سيما : سدوم وعمورة ومجنونة شايو ولن تقع حرب طروادة والكترا .

ويثبط همة أسلوبه ويثقل جناحي خياله ويصبح الأدب ـ خاصة الشعر ـ الهية لغوية،وعلى الأصح أحجية مطلسمة تستدعي من القارىء ـ هاذا اذا لم ينفد صبره ـ أن يفتح القواميس باستمرار ليفهم المراد ويفك اللغز ٠٠ غير ان الاديب المتحذلق اذا كان موهوبا يستطيع أن يخفف من تحذلقه بما يسبغه على أسلوبه من رمز وخيال وما يضمنه من فكر ٠٠ وهو القائل : يقول أبو العلاء

لا تقيد علي لفظي فاني
مثل غيري تكلمي بالمجاز

وهاذا ما استطاع المعري أن يفعله فوفق أحيانا كثيرة ولم نعد نستثقل ظله في اللزوميات مثلا أو رسالة الغفران فقد شغلنا بأشياء أخرى ممتعة كشطحات الخيال والسخرية البالغة والدعاب المضحك (١) ٠

---

(١) يقول طه حسين : قد نسرف على انفسنا وعلى الفن الادبي ان ظننا ان شعر اللزوميات جيد كله من الناحية الفنية الخالصة وانما المحقق ان الجيد من شعر اللزومات قليل يمكن ان يستخلص في مجلد نحيف يجمع الى الجمال الفني خلاصة الفلسفة العلائية. انظر كتاب « مع ابي العلاء في سجنه طه حسين ص ١٣٢ وما بعدها دار المعارف ١٩٦٣ ٠

والحوار الشيق والوصف والتمثيل والروح الأبوية والمعاني التأملية البعيدة حتى نسينا (في الرسالة) كل ما شحنه من مماحكات لغوية وجدل بيزنطي بين الأدباء واللغويين القدامى حول كلمة واحدة أو قاعدة معينة .. وكذالك حالنا مع اللزوميات (١) وسقط الزند .

كما يشغلنا المعري بكثرة التصوير الحسي وحب الاستشهادات المختلفة والولوع بالتحدي واظهار البراعة وكثافة المعرفة والذكاء الحاد في ملاحظة أوضاع الحقيقة التي يعمد الناس الى قلبها أحيانا وفضح كل ذالك بالسخرية الجارحة حينا والدعابة اللطيفة حينا والنقد والتصحيح بأستاذية ملحوظة في جميع الأحيان ..

واذا زعم العقاد أن رسالة الغفران « ليست بالبدعة الفنية ولا بالتخيل المبتكر » .. فان الباحث المعروف لدوار اميل البستاني يرد عليه قبلنا قائلا : « فلو أخذنا بهاذا المقياس (مقياس العقاد) ونفينا الخيال الا عن الذين أتوا بصور

(١) مطالعات في الكتب والحياة ص ٧٨ .

لا تحاكي شيئا ولا يشبهها شيء ، ولا تذكر القارىء بشيء ، لأسقطنا من مرتبة الخيال جميع شعراء الارض (١) » .

ونحن نقول ان هاذا الخيال التصويري الحسي ديناميكي حي ومتحرك تسيره الروح العلائية الساخرة المميزة والرؤية النافذة الى صميم الاشياء والاشخاص وحتى الألوان نفوذا لا يستطيعه المبصرون من الشعراء . ولولا الأستاذية اللغوية التي أثقلت هاذا الخيال لقلنا ان أبا العلاء قد جاء بالمعجز حقا في تصوير الجنة كما يشتهيها المؤمنون .. صحيح ان كل ما فعله أبو العلاء هو انه (استطرف شيئا تليدا » كما يقول طه حسين غير ان « عميد الأدب » العربي في الثلاثينات غاب عن باله ان « استطراف التليد » عملية داخلة في صميم الصنيع الفني لا سيما حين يفعل ذالك أديب موهوب وشاعر مبدع كأبي العلاء بحيث يخرج القديم على يديه وكأنه بعث من جديد حيا مشعا مشحونا بخصائص الشاعر الذاتية من حيث التصور والفهم والذوق

---

(١) ابو العلاء المعري ـ متأمل في الظلمات ادوار امين البستاني ص ١٤٧ سلسلة المصابيح ـ بيت الحكمة ـ بيروت ١٩٧٠ .

يسيره عقل وروح جديدان ويطغى عليـه أسلوب فريد . زد على ذالك ان أبا العلاء استطاع في رسالة الغفران أن يرتفع بالأسطورة الى مستوى الاحتمال والامكان وأن يضمنها فلذات من الاشارات الادبية والتاريخية والعقائدية فيجعلها واقعا معاشا في ثوب أسطورة ، أو أسطورة في ثوب واقع (١) .. واذا الكل يضج بالحياة ..

حتى الحروف والمقاطع والمفردات والعبارات والأسباب العروضية والروي والقافية لها في فمه مذاق خاص يلوكها ويتلذذ بها كسكرة تحت عرق لسانه .. لاكنها سكرة لا تذوب نهائيا بل تبقى تمده بالحلاوة ما شاء ... وهي أحيانا تنهمر على أذنيه انهمار الحياة في العروق أو تضج وتصطخب كما السمفونية ولا نشاز .. أو تتجسد له في الظلمة الدامسة المحيطة به كائنات حية : تحس ، تفكر ، تتمنى وتتألم .. اسمعه يسخر على طريقته بعلماء الصرف والنحو :

---

(١) انظر رسالة الغفران : منزل الخطيئة في طرف من اطراف الجنة .. واشباه ذلك . ص ٣٠٧ .

اتت علـــل المنـــون فمـــا بكاهم
من اللفظ الصحيـــح ولا العليـــل

ولـــو ان الكـــلام يحس يومـــا
لكـــان له وراءهـــم أليـــل (١)

وحين يتحرر أبو العلاء من « العقدة اللغوية » في شعره أو قبل أن « يشرب عقله الحائر ماء الشعر ورونقه (٢) » وكان ذالك في مراحل تفتق شاعريته الأولى ، نجده ينطلق بطبعه على سجيته ، وبأسلوبه على سهولته وعفويته مع عناية ملحوظة بهندسة التعبير لجهة بلاغته كالتقديم والتأخير والنداء وتجاهل العارف والطباق دون اكثار أو تعمل أو تعقيد .

نلاحظ ذالك بوضوح في سقط الزند وهو من بواكير أبي العلاء الشعرية حيث ينساب الشعر انسيابا أو يضج ضجيجا حسب انهمار العاطفة وصخبها وهي عاطفة جياشة صادقة في الحالتين . وخير مثل على ما نقول قصيدته الرائعة :

---

(١) دائرة المعارف ج٤ ص ٤٦١ د. جبور عبد النور .
(٢) على حد تعبير ادوار امين البستاني .

غير مجد في ملتي واعتقـادي
نوح بـاك ولا ترنم شـادي

فهي في ميزان الفن قطعة فنية خالدة خلود الصدق والعفوية والتأمل الفلسفي في حقيقة الحياة والأحياء .. قطعة ارتفعت عن مناسبتها الحزينة الخاصة الى أن أصبحت مرثاة للانسانية كلها ..

كانت رثاء لأحد أصدقاء أبي العلاء ولداته (١) .. فأصبحت رثاء لكل انسان ولكل وجود .. كل ذالك في ترابط توليدي مدهش بين الافكار واندفاق للمشاعر المأساوية التي يحس بها الشاعر احساسا عميقا وصادقا .. والمدهش في هاذه المرثـاة ان الأسلوب فيها لا يطغى مطلقا على المعاني فلا تعقيد ولا تله بروي أو قافية أو غير ذالك مما سنراه في اللزوميات ومصنفات العزلة العلائية .. ومن هنا استنتج النقاد المعاصرون صدق العاطفة فيها ولم يجدو أبا العلاء ينصرف عنها الى العقل وتعقيداته اذ لا يزال العقل العلائي ـ هنا ـ في بدايات تطلعه ومعرفته وغناه . فانصرف شاعرنا بكليته العاطفية

---

(١) ويدعى ابا حمزة وهو فقيه من فقهاء المذهب الحنفي ، خطيب يدعو الى الخير وراوية ثقة ، وناسك ..

الى صديقه يرثيه أصدق الرثاء وأشده وقعا على كل نفس ٠٠ فنجح في هاذا كل النجاح وحلـق في أجواء التأمل الفاجع بمصير الانسان والانسانية ، وصاغ هناك حكمته التي بلورها ومسحتها العاطفة بزيت الصدق والمشاعر النبيلـة فأحسسنا كأنهـا مرثاة لكل واحد منا فأشجانا ٠٠ وبكى وأبكى (١) !

العقل امام بل نبي :

مرة أخرى يتجنى الباحثون ، بعض الباحثين ، على أبي العلاء فيسلبونه حقا نحاول نحن هنا أن نرده اليه ٠٠ وهو حقه الصريح بلقب فيلسوف أو على الأقل متفلسف ٠

فلسفة باسكال تبدأ في اثبات انيته بالكوجيتو الشهير : أنا أفكر اذن أنا موجود

وأبو العلاء قبل باسكال بأكثر من ألف سنـة أحس بانيته وبوجوديته حين ألح على امامة العقل ونبوته في فهم كل وجود والتوصل الى كل حقيقـة حتى حقيقة الدين ان لم تكن خاضعة للعقل فهي

(١) انظر الى هاذه المرثاة في المنتخبات المثبتة اخر الكتاب ٠

ليست بحقيقة • وحين تعاملت الفوغاء بالدين وحدها ونأى العقلاء عنه أو أدعياء العقل في زمانه تمسك هو بعقله ورفض الدين كما فهمه المتاجرون به أو كما تمسكت به الفوغاء تمسكا ايمانيا أعمى •• ثم هاذا التفرد الملائي باحتضان الذات والانطلاق في فهم نفسه وحقائق وجوده من خلال العقل لا النقل أليس في هاذا اثبات لانيته أو هويته والحاح عليها ؟!

صحيح ان باسكال فيلسوف وصاحب المنهج والطريقة الرائدين ، لاكن أبا العلاء بايمانه المطلق بالعقل يبدو لنا فيلسوفا ـ ولو بغير طريقة أو نهج ـ لا سيما حين تخلى كثيرون من فلاسفة الاسلام عن العقل قبل أبي العلاء وآمنو بالحدس أو الفيض طريقا الى المعرفة الحقيقية كالأفلاطونيين والأفلوطينيين والمتصوفة ، والاشاعرة • وبعده كالغزالي وسائر الفرق الاسلامية المتأثرة به • هاذه الفرادة لأبي العلاء من بين أكثر الشعراء والفلاسفة العرب تهيب بنا الى الوقوف طويلا أمام هاذا الأعمى ـ البصير وهاذا الشاعر المتأمل الفيلسوف ، اذ ليس عيبا على المفكر ـ الشاعر ، أو الشاعر ـ المفكر لا فرق ، ألا يكون له نهج معين أو موقف موحد امام

قضايا الله والطبيعة والانسان والمجتمع والمصير وحقيقة النفس : مبدأها ومنتهاها ..

حسبه وحسب أبي العلاء انه كان فيلسوفا من نوع آخر : نوع جديد .. غير تقليدي.ولا اتباعي يرى في العقول اليونانية أو العقل الأرسطي خاصة منتهى الابداع فيقف عندها أو عنده ، وقفة تلميذ خاشع أمام أستاذه متهيب .. لا ينبس الا بما يقوله أستاذه ولا يتحرك الا باشارة منه ولا يفكر الا بعقله ..

لقد تعالى أبو العلاء عن كل هاذا وفهم الوجود والموجود وجميع الحقائق بعقله هو ــ وعلى طريقته الخاصة ــ لا بعقول الآخرين مهما كانو .. انه بتعبير آخر فيلسوف انتقائي يعجبه هاذا المذهب فيقول به .. ويحلو لعقله ذاك فيؤمن .. ثم ان وجده ــ بعد التحليل العقلي الاخير ــ غير صالح أو فاسدا رفضه ونادى بغيره وهاكذا هو بين انتقاء واختيار وغربلة ، يبرز دائما فوق الجميع وبحرية مطلقة وفرادة قل نظيرها ..

ونحن اذا فهمنا الفلسفة فهما كلاسيكيا محدودا وانها طريقة ونهج وقدرة على التجريد الذهني

والاستقراء والمنطق سقط تحت الغربال جميع الفلاسفة القدامى ما عدا أرسطو ٠٠وفي النهضويين ما عدا باسكال ٠٠ وعذرا من جميع المقتبسين والمقلدين من فلاسفة المسيحيين والمسلمين واليهود٠

أما اذا اعتبرنا الفلسفة بالمقياس الجديد ــ نظرة صائبة الى الوجود والموجود مجردة عن الهوى ٠٠ عقلانية باستمرار٠٠على تخلخل أحيانا واضطراب ولاكن على اخلاص وفرادة واصرار ٠٠ فان من كانت هاذه صفته وذاك اتجاهه فهو فيلسوف ٠٠ شاء التقليديون أم أبو ٠٠٠ لا سيما اذا راعينا شؤونه وعصره وخصوصيته ٠

يقولون ان « فلسفة » أبي العلاء لم تكن تخلو من الخيال والعاطفة ٠٠ وقبله أفلاطون لم تكن تخلو فلسفته من الخيال والعاطفة والأسطورة ، مما جعل تلميذه أرسطو يشن عليه حربا لا هوادة فيها ولاكنه رغم ذالك لم ينزع عنه صفة الفلسفة ٠٠

ترانا نغالي ونشتط في هاذه المقارنة أم ماذا ؟ لا شك ان التقليديين من المؤرخين وأصحاب الافكار الجاهزة سلفا ، سوف ينكرون علينا هاذا التطاول

على عمالقة الفلسفة في الشرق والغرب حين نقارن بينهم وبين أبي العلاء ولو من زاوية واحدة : زاوية التأمل البعيد في الكون والكائنات والنظرة الصائبة فيها : صائحين في وجهنا : هاؤلاء أصحاب نظام ومنهج وموقف معروف ومبادىء جاؤو بها فأين نظام صاحبك ومنهجه وموقفه ومبادئه ؟

نظام صاحبي ـ أولا وبكل بساطة ـ انه كان صادقا مع نفسه مخلصا لوحي عقله ٠ ومنهجه انه كان مبدعا لا مقلدا وانتقائيا لا خاضعا أو مسيرا ٠ وموقفه : انه كان ثائرا انقلابيا ، كل حقائق الوجود لديه قابلة للتغيير والنقد والسخرية أحيانا ٠٠ لا شيء ثابتا عنده ٠٠ لا مقدسات ٠٠ لا حقائق الا ما خضع لسلطان العقل والعقل وحده (١) ٠٠ حتى اذا عجز العقل عن ادراك حقيقة ما فليس هاذا عجزا من العقل في حد ذاته بل هي مرحلة تطور بلغها العقل في سيره الوائب ونموه المطرد ولم يستطع معها ادراك تلك الحقيقة ادراكا تاما ٠ وسيأتي حين من الدهر على هاذا العقل يصل فيه الى كل شيء ويدرك كل حقيقة ٠٠ أليس العقل نبيا في نظر

(١) الا يذكرنا ابو العلاء بالفيلسوف الفرنسي الساخر فولتير ؟

أبي العلاء ؟ والنبوة جزء من الألوهة أو شيء قريب منها ..

أما مبادئه : فليست من النوع التجريدي الاستقرائي الذي يصوغ العموميات من الخصوصيات بل ان مبادئه تجسيدية وبكلمة أصح: للمعري آراء ومبادىء منتزعة من صميم الواقع المعاش والعقائد السائدة : يتعامل معها .. يحاورها .. يرفضها .. يعلو عليها مكونا له مبادىء مقابلة هي النقيض دائما ..

ثم هو فيلسوف لأنه كان من دعاة العقل مبشرا بامامته ونبوته في عصر فقدت فيه القيم وشوهت الحقائق .. واستبعد العقل .. بل استعبد ..

بالعقل حمى حريته وكرامته وبه سخر من المقلدين وتعالى على الظالمين والدعاة ، وبه فضح المزيفين والمتاجرين بالانسان وبالدين .. تبعه قائدا واماما ومستشارا بل نبيا :

كذب الظن لا امام سوى العقل
مشيرا في صبحه والمساء

فاذا ما أطعته جلب الرحمة
عند المسير والارساء

ـ أيها الغران خصصت بعقل
فاسألنه فكل عقل نبي

ـ فشاور العقل واترك غيره هدرا
فالعقل خير مشير ضمه النادي ..

ويعجبه من أرسطو منطقه وبرهانه فيدعو اليه والى اجتناب ما يبطله :

ولا تصدق بما البرهان يبطله
فتستفيد من التصديق تكذيبا

ويربط أبو العلاء الفساد في المجتمع الى عدم الاصغاء لصوت العقل واتباع الهوى والفرض .. أليس هاذا هو سبب الفساد في كل عصر ؟ ... والمنجمون السحرة ـ لا علماء الفلك ـ الذين يرجمون بالغيب : هاؤلاء يسيئون الى العقل كثيرا حين يبطلون دوره الاوحد في فهم حقائق الأمور :

سألت منجمها عن الطفل الذي
في المهد كم هو عائش من دهره ؟

فأجابها مئة ليأخذ درهما
وأتى الحمام وليدها في شهره ..

لاحظ السخرية التي لا يتخلى عنها أبو العلاء في كل ما ومن ينقد ..

أفلا يحق لنا أن نسميه بعد الجاحظ فيلسوف السخرية في الأدب العربي ؟

اسمعه يتابع ساخرا ومشفقا في آن :

شكا الأذى فسهرت الليل وابتكرت
به الفتاة الى شمطاء ترقيه

وأمه تسأل العراف قاضية
عنه النذور لعل الله يبقيه

وأنت أرشد منها حين تحمله
الى الطبيب يداويه ويسقيه ..

انه يؤمن بالعلم ويهزأ من العرافين والسحرة الذين يستغلون سذاجة العوام ويوهمونهم ان الرقى والنذور تشفي الامراض .. كما يهزأ بالذين قالو ان السودان اختصو باللون الاسود لأن جدهم

حام دعا عليه أبوه نوح فاسود لونه .. وقد سبق بهاذا ابن خلدون بنحو أربعة قرون :

ما اسود حام لذنب كـــان أحدثه
لكـــن غريزة لون خطهــا الملـــك

أما في الماورائيات وبعض أسرار الحياة كخلود النفس والحساب والبعث فان العقل يدركها على نحو من التجريد أو هو يفهمها فهما نظريا .. أي يخضعها للقوانين العامة وبالتالي بمنطقها اذا صح التعبير .. لاكنه لا يحسم فيها ـ كما يفعـــل في المحسوسات ـ بل يحدس .. يظن .. يطمئن ايمانه ويرضي فضول العقل دون أن يملأه يقينا :

سألتمـــوني فأعيتنـــي اجابتكـــم
من ادعى انـــه دار فقد كذبـــا

أمـــا اليقـــين فـــلا يقـــين وانمـــا
اقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا

غير ان هاذا لا يعني أن يستبدل العقـــل بأداة أخرى ـ كما فعل الغزالي والمتصوفة والاشراقيون اجمالا ـ وظل أبو العلاء مؤمنا بالعقل معتمدا عليه رغم بعض قصوره .. وهاذه ميزة علمية فلسفية

تضمه خارج عصره وتقربه من الفلاسفة العقلانيين النهضويين ..

وان عقلا لا يرفدك بكل شيء ولا يقدم لك حلولا لكل قضية أو جوابا عن كل سؤال وتبقى تلح عليه وتستنجد به ولا تلوذ بغيره .. ان عقلا كهاذا ليشقي صاحبه ويضنيه . وأبو العلاء شقي بعقله وأضناه .. حين جعله اماما فما هداه ونبيا قلما خلصه أو شفاه .. لاكنه ما تنكر له ولا كفر به ـ كغيره ـ بل ظل يطلب منه الجواب .. ولا جواب! .. انه شقاء أصحاب العقول أمام المجهول .. وما أمره ! . ويعجبني قول للباحث نجيب مخول في هاذا المجال : « شقاء الوجود في الوجود دواؤه ، وشقاء الحياة في الحياة شفاؤه . لكن الوجود والحياة شيء وفهم الوجود والحياة شيء آخر . الوجود سخرة ، ان شئت ، يمكن الانسان تحملها . أما محاولة فك لغز الوجود والحياة فسخرية لم يتمكن الانسان ، حتى الآن ، من الاقلاع عنها (١) » .

واذا كان المجتمع قد فسد في أيامه فلأن الناس

(١) انظر كتاب : الفلسفة العربية في موضوعات موسعة ص ١٩١ نجيب مخول منشورات مكتبة انطوان ـ بيروت ١٩٧٠ .

ـ حكاما ومحكومين ـ لم يعملو العقل في تدبير شؤونهم ولم يصغو الى ندائه في التعامل والتعايش وتفسير القيم والقوانين •• وكان البديل : سيطرة العواطف والأنانيات والمصالح الخاصة ••

انما الآفة المستمرة حتى يومنا هاذا : تعطيل دور العقل ••

ومن هنا نجح أبو العلاء في نقد كل فساد والهـء بكل شئ ••

وفي رأي أحمد أمين ان سبب نجاح أبي العلاء يعود الى أمرين :

الأول : ان الأمور الاجتماعية والاخلاقية التي نعدها هي من صميم اختصاص العقل : « فالعقل أداة صالحة لربط الاسباب بالمسببات • والأمور الاجتماعية والاخلاقية تجارب تحدث فتحدث نتائجها تظلم المسؤولين والحكومات فتسوء حال الأمة وتعدل حالها •••

والسبب الثاني : ان ناقد هاذه الأمور متمتع بكثير من الحرية •••» الخ (١) •

---

(١) انظر كتاب مقام العقل عند العرب • ١٥٢ قدري حافظ طوقان •

العقل أمام الله :

لم يكن شك المعري في الماورائيات ناتجا عن جحود لوجود الله ·· بل لأن ستائر الغيب والمصير كثيفة لا يستطيع نور العقل أن يخفف من كثافتها وبالتالي فلا يقين بل شك مؤقت أي تعليق حكم ·· الى أن يهتدي العقل يوما في تطوره وتساميه ··

أما الله فلا شك في وجوده لأن العقل هو الذي يهدي اليه ويدل عليه لا الأديان ولا الانبياء ··· العقل يحتم أن يكون لهاذا الفلك الدائر بانتظام مدبر قدير أحكم قوانين دورانه ·· ولهاذه المخلوقات خالق عظيم « خلق الانسان في أحسن تقويم » وخلق لكل شيء قوامه ونظامه ·· وهاذا ما قالته الفلاسفة وأكدته الحكماء :

فلك يدور بحكمة ولـه بلا ريب مدبر
فالهلال المنيف والبدر والفرقد والصبح والثرى والماء
هاذه كلها لربك ما عابك في قول ذالك الحكماء

أمام كل هاذه العظمة يقف ـ بل يجب أن يقف ـ العقل خاشعا مقدسا والانسان محتسبا منيبا ·· فالله يعرف بالدليل العقلي واستقراء

حقائق الأشياء .. أما كيف هو وأين هو وما صفاته فأمور لا طاقة للعقل بها .. وقد ضل ضلالا كبيرا كل من بحث في ذالك كالمعتزلة والأشاعرة وعلماء الكلام عموما وفلاسفة الاسلام خصوصا حين قاسوه على ما يعرفون من صفات الانسان .. فانتهو الى خبط وعسف وكذب :

أما الاله فأمر لست أدركه
فاحذر لجيلك فوق الارض اسخاطا

يخبرونك عن رب العلى كذبا
وما درى بشؤون الله انسان

والله أكبر لا يدنو القياس له
ولا يجوز عليه كان أو صارا ..

فالاه أبي العلاء سر يعلو على كل بحث ويستغلق على كل فهم لاكنه يعرف من خلال مخلوقاته .. انه الاه منطقي ـ كالاه أرسطو ـ وليس الاه الاديان .. أو كما فهمه علماء الكلام ..

أما العناية الالاهية أو ما يسمى بالأجنبية La grâce divine فقد فهمها أبو العلاء فهما فلسفيا خاصاً . فالله لا يهتم بجزئيات الامور ولا

بالأفراد أشرارا كانو أو أخيارا ٠٠ وحين يقع الظلم أو ينزل الخير في بلد فليس لأن فيها ذالك الشرير أو هاذا الخير ٠٠ بل لأنها أقدار مقدرة وقوانين محكمة ونواميس تجري الطبيعة بموجبها، وحين يقع المقدور فليس لعقاب الافراد أو ثوابهم، اذ لا شأن لهم كأفراد في نظر الله :

تورعو يا بني حواء عن كذب
فما لكم عند رب صاغكم خطر
لم تجدبو لقبيح من فعالكم
ولم يجئكم لحسن التوبة المطر
ـ وانما هي أقدار مرتبة
ما علقت باساءات واجمال

وهو ينكر الجبرية ويقول بحرية الارادة لانسانية كما قالت المعتزلة لأن ذالك يتنافى مع لعقل ومفهوم العدالة ولا يجوز على الله أن يجازي المجبر ٠٠ تماما كما قالت المعتزلة :

ان كان من فعل الكبائر مجبرا
فعذابه ظلم على ما يفعل

أما أبياته الثلاثة الشهيرة :

قلتـــم : لنـــا خـــالـــق عليـــــم
قلنـــا : صدقتم ، كـــذا نقـــول

زعمتمـــــوه بــــــلا مكـــــان
ولا زمــــان ، ألا فقـــولـــو

هــــاذا كـــلام لـــه خبــــيء
معنـــاه ليســـت لنـــا عقـــول ..

فكل ما أراده بها هو ألا يخضع الله لمقـــاييس الزمان والمكان والحيز والأين والكيف الى ما هنالك (قاطيفوريـــاس) من المقولات الأرسطية العشر Catégories التي تمين صفة الشيء وبالتالـــي وجوده .. بل أراد له ـــ كما أراد الدين ـــ أن يكون فوق الزمان والمكان وخارج كل امكان .. أزلياً أبدياً لا بداية له ولا نهاية (١) .

أما انكاره لبعـــث الرسل والأنبيـــاء والوحي فتهمة لم نر لها ما يبررها سوى انها حكم متسرع على بعض أبيات للمعري يحذر فيها من الجدل في بعث الأنبياء وارســـال الرسل وتحكيم العقـــل في القضية :

---

(١) للتوسع انظر : الفلسفة العربية في موضوعات موسعة ص ١٩٩ .

قد طال في العيش تقييدي وارسالي
من اتقـى الله فهـو السالم السالي
وأرقب الأهـل في عسـر وفي يسـر
واتـرك جدالك في بعـث وارسال

والتحذير من الجدل في ذالك لا يعني الانكار ..
وانما هو ـ كما يقول طه حسين ـ « غير مطمئن الى النبوات وهو محتاط الى اعلان شكه فيها (١) » .
وفي الفصول والغايات يثني أبو العلاء على النبي محمد أكثر من عشرين مرة ويستشهد بأحاديثه وكلماته ..

أما الطقوس الدينية والفرائض فقد يعمل بها ويدعو اليها ما عدا الحج ... وعلى كل حال فهو معفى منها كلها لو أراد بموجب الشريعة الاسلامية القائلة بصريح الآية « ليس على الأعمى حرج ولا على المريض حرج » .. وما دام أبو العلاء مؤمنا بالله ايمانا عقلانيا حرا فلنغفر له بغض خطأه الذي حلل لنفسه فيه ما لا يجوز حين هجا الانبياء

---

(١) مع ابي العلاء في سجنه طه حسن ص ٢٠٠ دار المعارف بمصر ١٩٦٤ .

وتمادى في ذالك •• نغفر له لقاء ايمانه بالله ••
ولعل هاذا الذي صرح به كان نتيجة سورة غاضبة
وتشنج لم يدم طويلا :

ولا تحسب مقال الرسل حقا
ولكن قول زور سطروه !!

وكان الناس في عيش رغيد
فجاؤو بالمحال فكدروه

– أفيقو أفيقو يا غواة فانما
دياناتكم مكر من القدماء

أرادو بها جمع الحطام فأدركو
وبادو فماتت سنة اللؤماء !!

أي حطام هو هاذا الذي جمعه الانبياء الزاهدون يا أبا العلاء ؟!! •• لاكنه هذيان الشاعر الحائر في لحظة من لحظات ضيقه وتبرمه برجال الدين الذين جعلوه يكفر حتى بالدين نفسه لكثرة ما رأى وسمع من ظلمهم وكيدهم وابتزازهم وتزويرهم للحقائق •• هاذا المروق والكفر الصريح لا يشكل موقفا نهائيا بل هو حالة •• وحالة وجدانية عابرة سرعان ما يعود عنها الشاعر الى دنيا التوبة

والاعتراف والرضى العقلي .. أو على الاقل الى دائرة الشك وتعليق الحكم .. فهل نحاسبه على الحالة أم على الموقف ؟ نترك الجواب للذين رموه بالكفر والزندقة قدامى ومحدثين قبل أن ينظرو الى أنفسهم وحال دينهم ورجال دينهم .. ثم لعله قصد الأديان الوثنية .. من يدري ؟

كان يصوم ويصلي ويزكي .. ثم ألم تكن حياته كلها صوما (١) وصلاة وزكاة وضراعات آناء الليل وأطراف النهار ؟! وأي مال فائض يزكيه .. زكاته كانت مقاسمته خادمه نصف ايراده الذي لم يكن يتجاوز الثلاثين دينارا ... زكاته كانت عطاؤه، وعطاؤه كان أدبه وعلمه وأبوته وعطفه على تلامذته وروّاد مجلسه ودعوته الحارة الى احترام انسانية الانسان المستضعف والحيوان المستهدف، حتى أديم الارض له من أبوته نصيب ...

وما رأيك بانسان يصوم طول عمره عن الدنس والاثم ثم يرى في الموت عيد فطره ؟! ...

---

(١) انا صائم طول الحياة وانما فطري الحمام ويوم ذاك العيد ..

العقل أمام الانسان والنفس الانسانية :

يرى أبو العلاء ان الانسان جزء من الله ونور من أنواره ، فلا بد والحالة هاذه أن يكون مثل هاذا الانسان قديما خلقه • أقدم بكثير مما قالته الكتب وجاء به الرسل • والافلاك التي نسبو اليها العقول لم تكون أقدم من الانسان ؟

ومولد هاذي الشمس أعياك حده
وخبر لب انه متقادم

وما آدم في مذهب العقل واحدا
ولكنه عند القياس أوادم

دائما العقل والقياس هما اللذان يرشدان أبا العلاء الى حقيقة الاشياء لا المعروف أو الموروث من أقوال الغير حتى ولو كان هاذا الغير نبيا مرسلا •• وهو يلتقي مع الفلاسفة في القول بقدم العالم :

خالق لا يشك فيه قديم
وزمان على الأنام تقادم

جائز أن يكون آدم هاذا
قبله آدم على اثر آدم

ولقد سما حتى على أفلاطون في مسألة التناسخ حين اعتقد هاذا الفيلسوف هو والمتأثرون به ان النفس تنتقل من جسم الى جسم لتتطهر ٠٠ فحذر قائلا بشيء من السخرية الهادئة :

يقولون ان الجسم تنقل روحه
الى غيره حتى يهذبها النقل

فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة
اذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

وليس جسوم كالنخيل وان سما
بها الفرع الا مثلما نبت البقل

أو بشيء من الرثاء المر :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة
وحق لسكان البسيطة أن يبكو

يحطمنا ريب الزمان كأننا
زجاج ولاكن لا يعادله سبك'

كما يلتقي مع أكثر الفلاسفة في انكار خلود النفس وبعث الاجساد ٠٠ في الواقع هو يلتقي مع عقله لا مع أي شيء آخر أو شخص آخر ٠٠ فيترجم

عنه سواء أرضى بذالك الفلسفة أو الديـن أو أغضبهما •• لا فرق ••

أترجوُّن أن أعـود اليكـم
لا ترجـو فانـني لا أعود
ولجسمي الى التـراب هبوط
ولروحي الى الهواء صعـود

الجسم يعود الى مادته •• الى التراب •• أما الروح فعنصر لطيف يتبددِ بعد الموت في الهواء •• هاذا ما يقوله العقل :

أما اذا شاء الله ـ وهو على كل شيء قدير ـ أن يبعثها بعد الموت فله ذالك :

والله ينشر أرواحـا بقـدرتـه
ويبعث الغيث في أرواحه النشر ••

وتراه يلهو في اللزوميات بالنفس ، فتارة هي أرسطاليسية كما رأيت وتـارة هي أفلاطونيـة سينوية كما سترى :

النفس عنـد فراقهـا جثمانهـا
محزونـة لـدروس ربـع عامرِ

كحمامـــة صيـــدت فثنـــت جيدها
أسفـــا لتنظـــر حال وكر دامـــر

وتقفز رأسا الى الذاكرة عينية ابن سينا ..
لاكن أبا العلاء لم يتعمق في حقيقة النفس عند ابن سينا .. وليس من شأنه هاذا هنا .. ولا هناك ..
لقد قال رأيه في الموضوع .. وهو هنا يتلهى .. يستعرض .. لا أكثر .. واذا كان هاذا يسمـــى تناقضا فهو في الجزئيات وليس في اتجاهه العام ..

العقل أمـــام الحياة العملية

المجتمع ، الاخلاق ، التعامل مع الناس ، كلها أمور بحاجة الى العقل ٠٠ الى استشارته دائما والعمل بوحيه ٠٠ وأبو العلاء يرى ان كل ما يجري بين الناس في مجتمعه قائم على الأنانية أو الظلم ، أو التسرع ، أو التعصب ، أو التقليد أو الاستغلال ٠٠ وهي آفات يحاربها العقل ويدعو الى التسلح بنقيضها ٠٠

وأبو العلاء رغم يأسه من صلاح مجتمعه لا يعلن افلاسه في ذالك بل يعلن ــ في عزلته ــ ان العودة الى العقل ومشاورة العقل والعمل بنصيحة العقل يمكن أن يصلح من حال الناس وتقويم اعوجاجهم وانحرافهم ٠٠ وهاذه ناحية ايجابية في فلسفة أبي

العلاء التي طالما نعتت بأنها فلسفة هدامة يائسة من كل صلاح واصلاح لايمان صاحبها بغريزة الشر المطبوعة في الانسان منذ كان ٠٠

الخير موجود يدركه الانسان بمجرد التفكير ه ٠٠ العقل يشير اليه ٠٠ بل هو يشير الى نفسه :

من أراد الخير فليعمل لـه
فعليـه لذوي اللـب علـم

واذا مارست فعل الخير للخير لا للثواب تصبح ثلا وقدوة فينتشر بين الناس :

والخير يعدي كغادي مزنة هطلت
أرضا فلمـا رآها رائـح هطلا

فلو عقل الناس ما تمايزو ولا تنابذو بالألقاب لما استغل بعضهم بعضا ولما كان بينهم غني على حساب فقير :

يا قوت ، ما أنت ياقوت ولا ذهب
فكيـف تعجـز أقواما مساكينـا
وأحسب الناس لو أعطـو زكاتهم
لمـا رأيت بني الاعدام شاكينـا

وفي أعلى مراتب الصحو العقلي والتألق الوجداني ينهمر الفكر العلائي بأحدث الآراء الاشتراكية ولو بقالب عاطفي غير مقونن :

لو كان لي أو لغيري قيد أنملة
من البسيطة خلت الأمر مشتركا

والامام علي ليس في الاعتبار الانساني أفضل من خادمه قنبر ولا العربي أفضل من البربري .. دعوة الى المساواة معروفة قالت بها الأديان ونادى بها الاسلام لاكنها من فم أبي العلاء ومن عقله ووجدانه ذات مذاق خاص ووقع مميز ..

لا يفخرن الهاشمي
على امرىء من آل بربر

فالحق يحلف ما علي
عنده الا كقنبر

ـ وما نأت القرابة عن رجال
أبوهم يافث وأبوك سام

ويطرح عقله قضية المواريث والانصبة فيراها في معظم الشرائع جائرة غير منصفة .. وتمتلج في

أعماقه مشاعر البنوة الصافية وتتراءى له دائما أمومة أصفى وأكثر حنانا فيهتف منتقدا تقسيم المواريث والسهم الذي تصيبه الأم من ارث ابنها وهو السدس أو (٤٠٠ سهم) فقط من ٢٤٠٠ بينما البنت لها النصف والزوجة الربع !٠٠٠

والأم بالسدس عادت وهي أرأف من
بنت لها النصف أو عرس لها الربع !

الى آخر هاذه الحملات الشعواء والانتقادات الهادفة التي أقضت مضجع أبي العلاء على خشونته ولم يسكت عن الزيف والدجل والظلم طيلة حياته مع أنه بمنأى عن مواقعه وعن أذى أصحابه ٠٠ لاكنها عاطفة الأبوة والحب العميق الذي يحمله للمستضعفين في الارض فلو كان متشائما يائسا من صلاح الناس ـ كما زعم أكثر مؤرخيه ـ لما رأينا في تضاعيف كل قصيدة وفي خبايا كل خفقة من خفقات وجدانه تلك اللهفة العارمة تتعاظم كلما ظهر له باطل أو حدثوه عن ظالم ٠٠ وحين دعا الرجال الى عدم الزواج بل الى الخصي كيلا ينجبو ، والناس جميعا الى الموت ، واختصار الحياة وفضل القبر على البقاء ٠٠ لم يفعل ذالك ولم يدع اليه

عن تشاؤم أصيل فيه رغم بلائه العظيم ، وظلام حياته المستمر وحندس ليله المقيم، بل فعل ذالك بعد أن بح صوته وطال عذابه مع من لا يفهمون أنفسهم ولا يقدرون قيمة انسانيتهم وكرامتهم ولا يثورون على واقعهم في مجتمع جعل منهم وقودا لمطامع حكامه وأضاحي لشهواتهم .. فخير لمثل هاذا الانسان أن يموت دفعة واحدة من أن يموت كل يوم .. وقد رأينا في فصول سابقة كم كان أبو العلاء محبا للحياة والأحياء ، مقبلا على الدنيا في مطلع شبابه وبدء رحلاته رغم عماه .. يوم كان يقول منشدا آماله وأمانيه :

سقيـــا لأيـــام الشبـــاب
ومـــا حســرت مطيتيـــا

أيـــام آمـــل أن أمـــس
الفرقـــديـــن براحتيـــا

لاكن الدنيا لم تقبل عليه بل كالت له الصفعة تلو الصفعة ، ورغم هاذا ظل يغازلها ويخطب ودها عله يصلح من شأنها وعله يبلغ فيها ومنها ما يريد من شهرة وسعادة ومجد وأولاد .. وحين اعتزلها لم يلق سلاحه نهائيا بل ظل موصول القلب والعاطفة

بالناس ٠٠ بالمساكين من الناس ٠٠ بالطيبين منهم ٠٠ بطلاب المعرفة ٠٠ بالمحبين الذين لا تزال في عقولهم وقلوبهم بقية فضل وكرامة وحب ٠٠

كلا ! لم يتشاءم أبو العلاء أصلا ومزاجا ٠٠ أقولها تكرارا ٠٠ بل « قرفا » ومقتا لانسان تاه عن حقيقته ٠٠ ومجتمع راج فيه كل شيء الا العقل والقلب والضمير ٠٠ وأديان شوهت حقائقها وغاياتها وقلبت مقاييسها وأصبحت أشبه بالمتاجر منها بالمنائر ٠٠٠

هاذا هو أبو العلاء:

فقد آن لنا أن ننظر اليه بالمنظار العلمي الجديد ٠٠ وبالعقل المعرفي المجرد ٠٠ لا أن نجري مع الفكر السلفي والمفكرين التقليديين الذين رأو في هاذا المفكر الحر عالة على الدنيا والدين وعبئا ثقيلا على الانسانية، يدعو الى الخلاص منها بالخصي وقطع النسل والموت ٠٠ وهم لو عقلو مثله وتجردو لقالو قوله وآمنو بما آمن وشكو بما شك ٠٠ لاكن مصيبة أبي العلاء معنا انه يجرؤ حين نجبن ويعبر حين نعجز عن الكلام ويصرح بما يضمر ونحن

نضمر غير ما نصرح ..

ولو أنصفو وتجردو لرأو فيه مفكرا عقلانيا معرفيا كبيرا وانقلابيا خطيرا واصلاحيا ثوريا وساخرا حرا يفضح الزيف ويكشف المزيفين ويعري حقائق الكون والحياة والأحياء .. فاذا بها أمامك غير ما لقنتها واذا بها غير ما قدستها ..

وخير ما أختم به هاذه الدراسة المتواضعة لفكر أبي العلاء وحقيقته قول للباحث المعروف نجيب مخول يقيم به عقلانية أبي العلاء: « لا شك ان المعري شاعر مفكر . لاكنه في نظر الفلسفة أكثر من شاعر ومفكر : انه رمز العقل البشري الحائر الوثاب في آن واحد ، غير المحدود في عظمه ، وغير المحدود في صغره على ما قال باسكال عن الانسان صاحب هاذا العقل .. فوق ذالك كله لأبي العلاء منزلة خاصة بين نوابغ الشرق : هاذه البلاد كانت أقرب من غيرها الى السماء : عن طريق السماء أتى أكثر ساستها ، عن طريق السماء برز أكثر علمائها ، عن طريق السماء فكر أكثر فلاسفتها .. أما المعري فكان فيها رسول العقل ونبيه ، وبالعقل شقي فأصبح ضحية من ضحاياه ... » الى أن يقول : « لو قيض للفكر الشرقي أن يتطور تطورا طبيعيا

بعد أبي العلاء لرأينا العقل يعمل عمله عندنا ، في العلم والفلسفة ، ولما كنا في مؤخرة الركب الانساني .. أما روحانيتنا فلا خوف عليها لأن جذورها آخذة في أعماقنا ، أكبر دليل على ذالك أبو العلاء نفسه ، فهو مع عقلانيته الشامخة المتمردة ، ومع كل ثورته المحمومة على التقاليد ظل مؤمنا بإلاه خالق اتقاه وخشع له والتمس عفوه » .

الى طلاب البكالوريا اللبنانية ـ القسم الثاني ـ فرع الفلسفة

أعرف مثلكم أيها الأعزاء ان المعري ، وان كان مفروضا في منهجكم الرسمي اللبناني ، الا أنه نادرا ما جاء في الامتحانات الرسمية . حتى اذا جاء أعرضتم عنه الى غيره : كالفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد وابن خلدون .

مع انه في نظري أمتع وأخف ظلا وأقرب الى النفوس .. والكتابة في آرائه وفلسفته أسهل وأنجح ...

مسكين أبو العلاء : لقد ظلمه عصره لأنه لم يفهمه .. فأعرض عنه .. وظلمناه نحن لأننا

فهمناه ·· خطأ ·· في أكثر الأحيان ·· فأعرضنا عنه ·· وهاذه الدراسة دعوة متواضعة الى فهم أبي العلاء فهما حديثا ، ومحاولة لرفع الغبن عنه والأذى اذ يكفيه ما لاقي ، وما يلاقي ·· سيظهر لكم انه كان محبا لا حاقدا ·· ومتفائلا ·· لا متشائما ·· محبا للمستضعفين ـ أمثالنا ـ لا للطغاة ·· محبا للعقل والعقلاء ـ مثلنا ـ لا لمشوهي العقل والعقلاء ·· ومزوري القيم والقوانين والشرائع ·· والمتاجرين بالله ! ·· اقرأوه ـ اذن ـ لا لتكتبو عنه في امتحاناتكم ·· مخافة أن يصيبكم بعض فشله وسوء حظه ·· بل لتدافعو عنه في نواديكم ومحاضراتكم ، ولتباهلو به امام بيرون ولوكريس وأبيقور وفاليري وشو ·· وحتى ديكارت ···

ومن أراد منكم نموذجا للبحث في آراء أبي العلاء ومواقفه وأسئلة دورات تختص به فاليكم هي :

للمطالعـة

١ ـ موضوع نموذجي مفصل :

قال المعري :

أيها الغر ان خصصت بعقل
فاسألنه فكـل عقـل نبـي

أ ـ اشرح هاذا البيت و بين رأي المعري في العقل ، وقيمة المعرفة العقلية (٦ علامات) ٠

ب ـ ما صلة العقل بالدين عند المعري ٠ ابن ذالك في نموذج من الشواهد ٠

جـ ـ هل كان لأبي العلاء رأي ثابت في مسألـة المصير ؟

د ـ أذكر الدوافع والاسباب التي قادت المعري الى

التشاؤم (١٤ علامة) ٠
دورة ١٩٧٤ الثانية

الأفكار الرئيسية

أ ــ شرح البيت :

أيها الفتى المغرور بأشياء الشباب من مِجد وثروة وصحة وعقيدة ٠٠ ما قيمة كل ذالك اذا كان العقل الذي خصك به الله دون سائر المخلوقات، لا تعمل به ولا تهتدي بهديه ٠٠ ما قيمة ارثك وتراثك ودينك اذا تقبلت كل هاذا بالتقليد والتبعية ، دون أن تستشير يوما عقلك اذا كان كل ما أعطيته صحيحا ٠ وكل ما تؤمن به حريا بالايمان أو الثقة أو التقديس ٠

ان الحقيقة ــ أيها الفتى ــ لا يمكن أن نعتبرها حقيقة ساطعة قاطعة الا اذا جاءتنا عن العقل : هاذا النبي الاول ــ في نظر أبي العلاء ــ الذي عن طريقه يعرف النبي الثاني ــ أو الرسول ــ وتفهم رسالته ٠٠

في جميع الأديان دعوة صريحة الى تقديس العقل

البشري والرجوع اليه ـ وواضح ان المعري يقصد العقل المثقف المتحرر ـ حتى الايمان الديني اذا لم يكن ايمانا عقليا ، فلا قيمة له ولا فائدة • وطالما سبب الايمان الموروث شكا وأزمات نفسية لـدى كبار علماء الدين أنفسهم •• وخير دليل على ذالك الغزالي ••

ثم ان العقل هو الطاقة الوحيدة التي تحمل من مشكاة الألوهية الشيء الكثير وقد خصصت بهـا وحدك أيها الانسان فاستثمرها في كل شيء وفي كل حين • فهي النبي قبل أي نبي :

فشاور العقل واترك غيره هدرا
فالعقل خـير مشير ضمه النـادي

والطاعة المطلقة لا تجوز الا لله • والعقل نور الله في الانسان : يكشف العمـى ، ويجلب الرحمـة والهدى :

فاذا ما أطعته جلب الرحمة عند المسير والارساء

وهاكذا نجد ان المعرفة النقلية لا قيمة لها على الاطلاق اذا لم تؤيدها أو تحـل محلهـا المعرفـة

العقلية ، فهي المعرفة اليقينية لا سواهـا ٠ ودع عنك ما يؤمن به أصحاب الحدوس والاشراق ٠٠

ب ـ ما صلة العقل بالدين عند المعري ٠ ابن ذالك في نموذج من الشواهد ٠

مصيبة المعري ـ أو فضيلته ـ لا أدري ، انه لا ينظر الى الدين الا بمنظار العقل المخزون بألف سؤال وألف شك لا سيما وهو يرى الى الدين وقد أصبح ألعوبة بأيدي تجار الدين ومزوريه ٠٠ وحتى الدين يرى فيه أباطيل وأساطير لا ينكرها الكثيرون بل يؤمنون بها ٠٠ فكيف لا يكفر المعري بالدين ٠٠ بل بالأديان جميعا ؟ وهو يرى التجسيد يصبح عقيدة والتقليد يمسي ميزانا للمعرفة ، والتشبيه ينقلب ايمانا ، والتنجيم والسحر والشعوذة يعمل بها وكأنها تنزيل من التنزيل ؟! كيف لا يطلق صيحته الحاسمة قائلا :

اثنان أهـل الارض ذو عقل بلا
دين وآخر ديـن لا عقـل لـه

مصيبته ان عقله تمادى فكفر ٠٠ وان رجل الدين تمادى في جهله فهجر ٠٠

رجل الدين تمادى في جهله فهجر ٠٠

أما الله فشيء آخر : يؤمن به أبو العلاء لأن

العقل يشير اليه بدليلين على الاقل هما : دليل العلة والمعلول ، ودليل العناية الالهية (للتوسع انظر صفحة ١٤٥ و ١٤٦) .

مولاك مولاك الذي ما له
ند وخاب الكافر الجاحد

فلك يدور بحكمة
وله بلا ريب مدبر ..

فالهلال المنيف والبدر والفرقد والصبح والثرى والماء
هاذه كلها لربك ما عابك في قول ذالك الحكماء

كل هاذه العناصر والأجرام والكواكب دليل على وجود ربك .. بهاذا قالت الفلاسفة وبهاذا يشير العقل فلا تخشى بعد ذلك أن يعيبك أحد .

ويلتفت أبو العلاء الى الفرق الدينية الاسلامية فيرى خلافا يبلغ حد العنف والاقتتال ، ولا يرى حوارا ، ولا محبة ، ولا طلبا للحقيقة الدينية لذاتها .. فهاذا معتزلي ، وذاك أشعري ، وذالك مرجىء ، وذياك حشوي أو تشبيهي ، أو علوي ، أو فاطمي ، أو قرمطي الى آخر السلسلة غير الذهبية. .. والحاكم فوق كل هاؤلاء مستغل مبتز لا هم له

سوى زيادة الطين بلة ...

كما يلتفت الى الاديان الاخرى فيرى الشيء نفسه والقتال نفسه والتهافت نفسه :

كل يمجد دينه يا ليت شعري ما الصحيح !

والجواب المؤلم الذي يفرض نفسه على أبي العلاء : لا صحيح !! الا ما أثبته العقل ودل عليه البرهان .. وهو قليل ..

ج ـ هل كان لأبي العلاء رأي ثابت في مسألة المصير ؟

من خصائص الفكر العلائي انه فكر تساؤلي تأملي حائر .. وبهاذا امتيازه على سائر الافكار التسليمية في عصره .. انه فكر مستقبلي ـ اذا صح التعبير ـ وبالتالي حضاري ، حين لا يكتفي بتقبل وجود مفروض من الغير : سواء كان هاذا الغير الله أو الطبيعة أو الانسان .. بل يحاول أن يكون وجودا خاصا به : وجودا حرا مثاليا يحلم به ويتطلع اليه .. لكن الوجود المفروض يضغط عليه ويشده الى الواقع المرفوض ..

وبين فكي الفرض والرفض بين القبول والشك يعتصر عقل الانسان وقلبه وتبرز مأساة الرافضين .. وبمقدار ما يكثر الرفض والتساؤل والشك تحقق الانسانية مصيرا أفضل على هاذه الارض ومجتمعا أمثل ..

ومأساة أبي العلاء انه كان رافضا لمصيرين لا مصير واحد : الاول مصير الانسان على الارض وقد وجد له حلا بالعزلة ورفض القيم السائدة .

لاكن المصير الثاني وهو الاكثر هولا والأعمق مأساوية : مصير الانسان بعد الموت ، هو الذي حاول عقل المعري أن يحله بعد أن لاب حوله كثيرا وتساءل كثيرا غير انه تحطم على أبوابه الموصدة وراح ينشد بل ينشج أروع أشعاره وأعمق أفكاره .. ويشركنا معه أشد المشاركة لأنه غنى لنا أعمق مشاعرنا ورثا لنا حتمية النهاية المفجعة للانسانية المعذبة : نأتي الى الحياة مكرهين ونحياها حائرين مروعين .. ثم نغادرها مرغمين ؟. نحلم قبل الوداع بجمهورية عاقلة أو مدينة فاضلة أو الاهية (١) ، أيام التداعي والانهيار ، فيبقى الواقع

---

(١) اشارة الى كتاب « مدينة اللـه » التي حلم بها القديس اوغسطين .

واقعا والحلم حلما •• وعزاء الحالمين انهم يهدهدون الفاجعة ولو الى حين •• وينيرون شمعة صغيرة في حندس الليل الطويل •••

والمعري من هاؤلاء الحالمين الواقفين أمام الباب المرصود يدقونه بعنف ولهفة ولا جواب ••

أليست مأساتنا ـ والحالة هاذه ـ مثلثة الابعاد كثيفة الظلال باعثة على الرثاء والبكاء اذا صادفت فكرا حائرا لا يطمئنه دين ولا يقين، وقلبا ثائرا لا يخفف أشجانه وآلامه أي أمل •• أو بأرقة حل •

فكيف لا يبكي المعري ولا يرثي المصيرين وهو حامل هم العصر والانسان والمصير ؟!

تواجهه ـ وهو المؤمن بالله ـ مسألة خلود النفس وحشر الاجساد فيعرضها على عقله فيرفضها وعلى ايمانه فيقبلها وها هو يقبلها مترددا في حوارية عابثة :

زعم المنجم والطبيب كلاهما
لا تحشر الاجساد قلت : اليكما :
ان صح قولكما فلست بخاسر
أو صح قولي فالوبال عليكما ••

انه موقف يترجح (١) بين العقل والايمان ، بين العلم والدين ·· يعرضه المعري بأسلوبه الساخر العابث ، لعله يرضي الطرفين ·· وقد فعل ·· وحين يطغى العقل على كل شيء يرفضها وينكرها في رثائية كئيبة :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة
وحق لأبناء البسيطة أن يبكوا

تحطمنا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعادله سبك ··

ويا لها من مهزلة تلك التي ما نكاد نضحك لها حتى نبكي منها ! ·· كلنا صائر الى فناء ·· وليس من هاذا الفناء مخرج ·· وبعد الفناء ·· فناء ولا قيامة ·· ولا سبك للزجاجة بعد كسرها ··

انه حكم للعقل قاس مجرد من كل ايمان أو امكان ·· أو لطف إلاهي · غالى به المعري وتمادى كأبيقور في سالف الزمان (٢) ·· فالى أين تذهب

---

(١) لا يقال تأرجح بل ترجح (انظر لسان العرب مادة رجح) ·
(٢) انظر كتاب : مع ابي العلاء في سجنه طه حسين ص ١٧١ وما بعدها ـ دار المعارف ١٩٦٤ ·

الروح بعد فناء الجسد ؟ الجواب : الى المجهول !!

الروح تنأى ، فلا يدري بموضعها
وفي التراب،لعمري،يرفت الجسد

لاكن الله قادر على اعادة الاجسام و بث الحياة فيها من جديد :

. . . .

ان قال ربي لأجسام البلى : عودي
فذالك وعده وعهده و :
« حاشا لربك من اخلاف موعده » ..

فهو يترك مسألة الحشر لله الذي يؤمن به و يقر:

أقر بأن لي ربا قديرا
ولا ألقى بدائعه بجحد

أما اذا عرضها مباشرة على عقله فالموقف يختلف تماما ..

تشاؤمه ! :

أما تشاؤم أبي العلاء فلنا فيه رأي خاص قد يكون خاطئا : وهو ان التشاؤم مزاج سوداوي ينشأ معه الانسان منذ الصغر وينمو مع الايام فيصبح

قاتلا ٠٠ لاكن أبا العلاء لم ينشأ على مثل هاذا المزاج ــ رغم عماه ــ بل اننا نفهم من سيرته وحقيقة نفسيته أنه كان مقبلا على الدنيا تواقا الى اللهو واللذة توقه الى المعرفة والشهرة ٠٠ وما ذهابه الى بغداد ــ في شبابه ــ وتطوافه في الحواضر السورية والعراقية ومراكز العلم الا طلبا لكل ذالك ٠٠ لكن المجتمع بأوضاعه السائدة والفاسدة يومذاك غيرت حاله من اقبال الى ادبار ٠٠ ومن رضا وقبول الى رفض وشك ونقمة ٠٠ على أن روح المرح والدعابة لم تفارقه حتى في أسوأ حالاته ٠٠ بل تحولت الدعابة الى سخرية ونقد مريرين ٠٠ والمرح الى جدية وانكماش صارمين ٠٠ وانقلب أبو العلاء معها الى رافض عنيد لا سيما حين اعتزل لائذا بعقله وبعقله وحده ٠٠ وراح يطل على الناس ناعيا عليهم وجودهم وقيمهم وعقائدهم ٠٠ مقترحا له ولهم حلا وحيدا هو : الموت بشتى صوره ٠٠٠

فكيف أقبل عليهم ٠٠ ثم كيف أدبر ؟ ومن السبب ؟

لم يكن هو السبب : بل كانو هم السبب في

الحالتين ·· اذن : لم يكن أبو العلاء متشائما على الاطلاق ·· كان انسانا مفجوعا بآماله حالما بسعادة دنيوية تعوض عليه بعض ما فقده ، لاكنها كانت سرابا ·· فحين ينعى انسان عقلاني على النـاس فساد عنصرهم وتحاسدهم وتكالبهم وظلم بعضهم لبعض وتماديهم في كل ذالك ·· لا يكون هـاذا الانسان ـ في نظري ـ متشائما أبدا ولا يائسا ·· بل انسانا مشفقا على أخيه الانسان صارخا في وجه الطغاة ان توقفو ·· وفي وجه النيام ان استيقظو ·· وحين لا يجد آذانا صاغية بل امعانا في الظلم والنوم والاستسلام ·· ماذا تريد من شاعر متأمل صادق حساس أن يفعل تجاه ذالك ؟ هل يخدرنـا بمعسول الآمال الكاذبة القائلة بأن الانسان لا بد له من فجر بعد ليله الطويـل ـ كمـا فعل ويفعـل شعراؤنا ـ أم يواجهنا بالحقائق المرة ؟ ويصفعنا بواقعنا صفعا ·· حين يجرده ويعريه ؟!

ومتى كان قول الحقائق ولو جارحاً صادرا عن متشائم ؟!

لست أفهم لماذا نعتوه بالمتشائم ونسبو تشاؤمه الى عماه ومزاجه وفهمه السلبي للقيم والمجتمع ··

كأن المجتمع والقيم يجب أن تفهم دائما فهما ايجابيا وتقبل على علاتها والا فمنتقدها ومحطمها ورافضها انسان متشاؤم •• ونحمد الله على أن الشيوعية لم تكن معروفة في أيام أبي العلاء والا لنعت بها حين تصدى للنظام والحكام ورجال الدين •• على ان فيلسوفنا لم يسلم من تهم مشابهة كالكفر والالحاد والزندقة والمروق والعقوق الى آخر هاذه السلسلة غير الذهبية من التهم الباطلة التي يواجه بها كل مثقف صادق ملتزم حر في كل زمان ومكان حفاظا على الفساد وأهله ••

واذا كان أبو العلاء قد غالى في هجومه وتمادى في سوء ظنه بالحياة وبالأحياء فليس ذالك منه تشاؤما ولا يأسا •• وانما كان قولة حق ولو مرة •• وضربة حر ولو قاتلة •• ولو كان من بعده الطوفان •• فالاحرار امام الحق اما قاتلون أو شهداء •• ولا وسط !!!

لم يكن منتظرا من مثله أن يضحك حيث يجب البكاء •• وأن يهادن حيث تجب الحرب •• وأن يصمت حيث يجب الكلام •• وأن يطلب الحياة حيث يجب أن يطلب الموت •• بل أن يصدق مع نفسه

وربه •• حيث كذب الدعاة ونافق المتاجرون ••
فخير للبشرية ألا تكون على أن تكون كما وجدها •

ونحن نلاحظ ان أبا العلاء رغم كل هاذا البلاء والفساد في الانسان والمجتمع ظل على حبه للمستضعفين في الارض حتى الحيوان لم يشأ أن يؤذيه بذبحه وأكل لحمه •• أما المجتمع فلا شك في أنه كان يحلم ـ لا سيما في شبابه ـ بمجتمع مثالي عقلاني تسود فيه المحبة والحكمة والعقل والعدل والمساواة •• « فاذا به يتبين الواقع الفاجع حيث لا أثر لما أراده وتمناه (١) » •

وهاكذا نجد ان المعري لم يكن متشائما بالمعنى الفلسفي للكلمة بل كان انسانا عقلانيا مفجوعا بآماله وطموحاته ، أصابه نوع من « القرف » بلغ به حد الغثيان من تفاهات وأباطيل لم يملك الا أن يبصق عليها •• دما من قلبه ووجدانه وبيانه ••

فعاش في قلوب الأجيال المتطلعة الى غد أفضل ••
وخلد كما يخلد الحق والفن والحرية •••

---

(١) انظر : دائرة المعارف د• جبور عبد النور ج٤ ص ٤٦٣ •

٢ ـ أسئلة ألقيت في دورات مختلفة :

في امتحانات البكالوريا اللبنانية ـ فرع الفلسفة ـ

١ ـ قال أبو العلاء :

ان مازت الناس أخلاق يقاس بها
فانهم عند سوء الطبع أسواء

فما معنى هاذا القول وكيف علله صاحبه . وهل تراه مصيبا في نظرته الى أبناء المجتمع ؟

(دورة ١٩٥٩ الأولى)

٢ ـ قال أبو العلاء :

اثنان أهل الارض ذو عقل بلا
دين وآخر دين لا عقل له

وقال :

اذا رجع الحصيف الى حجاه
تهاون بالشرائع وازدراها ..

اشرح قوله مشيرا الى ما يذكرك من آرائه في الأديان ، والعوامل التي أذكت ثورته عليها ، وناقشه في جوهر فكرته مستندا الى البرهان والواقع ·

(دورة ١٩٦١ الأولى)

٣ ــ جاء في قول لأبي العلاء المعري :

يقولون ان الجسم تنقل روحه
الى غيره حتى يهذبها النقل
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة
اذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

وضح المعاني التي أشار اليها المعري في هاذين البيتين وبين :

ــ رأيه في الديانات والشرائع ·
ــ موقفه من العقل ·

وأيد ما تذكره باشارات واضحة الى أقواله ·

(دورة ١٩٦٢ الثانية)

٤ ــ يقول طه حسين في « تجديد ذكرى أبي العلاء » : « والواقع ان أبا العلاء لم يتخذ لنظره الفلسفي مذهب أهل السنة ، ولا مذهب السوفسطائية

وأصحاب الشك ، ولا مذهب المعتزلة أيضا ...
واذا ، فهو يرى رأي الفلاسفة النظريين ، من اليونان والمسلمين ، في الاعتماد على العقل خاصة » .

أ ـ فما معنى هاذا القول ؟

ب ـ وهل في اللزوميات ما يثبته أو ينفيه ؟ أوضح ذالك .

ج ـ بين كيف يتقرر موقف المعري من قضايا الذين على ضوء موقفه من العقل .

د ـ هل تجاري حكيم المعرة في قوله :

اثنان أهل الارض ذو عقل بلا
دين وآخر دين لا عقل له ؟

أيد رأيك بأمثلة من الواقع .

(دورة ١٩٧٣)

٥ ـ قال المعري :

أيها الغر ان خصصت بعقل
فاسألنه ، فكل عقل نبي (١)

(دورة ١٩٧٤ الثانية)

---

(١) تجد تفصيل ذالك في موضوع نموذجي مبسط (انظر الصفحة ١٦٧ من هاذا الكتاب) .

نماذج من « رسالة الغفران »

لقاء ابن القارح بالأعشى في الجنة :

« فيهتف هاتف : « أتشعر أيها العبد ، المغفور له ، لمن هاذا الشعر » ؟ فيقول الشيخ : « نعم ! حدثنا أهل ثقتنا ، عن أهل ثقتهم ، ان هاذا الشعر لميمون بن قيس بن جندل » ، فيقول الهاتف : « انا ذالك الرجل ! مَنَّ الله علي بعد ما صرت من جهنم على شفير ، ويئست من المغفرة » .

فيلتفت اليه الشيخ هاشا باشا مرتاحا . فاذا هو بشاب غرانق (١) وقد صار عشاه حورا ، وانحناء ظهره قواما . فيقول : « سحبتني الزبانية (٢) الى سقر (٣) ، فرأيت رجلا في

(١) جميل .
(٢) الموكلون بتعذيب الهالكين .
(٣) من اسماء جهنم .

عرصات (١) القيامة يتلألأ وجهه تتلألؤ القمر ، والناس يهتفون به من كل أوب (٢) : « يا محمد ! يا محمد ! الشفاعة ! نمت بكذا ! ونمت بكذا (٣) » فصرخت في أيدي الزبانية : يا محمد أغثني ، فان لي بك حرمة ! فقال : « يا علي ! بادره فانظر ما حرمته » • فجاءني علي بن أبي طالب ، صلوات الله عليه ، وأنا أعتل (٤) كي ألقى في الدرك الأسفل من النار • فزجرهم عني ، وقال : « ما حرمتك ؟ فقلت : أنا القائل :

ألا أيهذا السائلي : أين يممت ؟
فان لها ، في أهل يثرب موعدا !
فآليت لا أرثي لها من كلالة
ولا من حفى حتى تلاقي محمدا !

وقد كنت أؤمن بالله وبالحساب ، وأصدق بالبعث ، وأنا في الجاهلية الجهلاء • فذهب علي الى النبي (صلعم) فقال : « يا رسول الله ، هاذا

---

(١) ساحات •
(٢) من كل جهة •
(٣) نتصل بك بقرابة كذا •••
(٤) احمل •

أعشى قيس قد روى مدحه فيك ، وشهد أنك نبي مرسل » • فقال : « هلا جاء في الدار السابقة ! » فقال علي ، رضوان الله عليه : « قد جاء ، ولاكن صدته قريش وحبه للخمر » • فشفع لي ، فأدخلت الجنة على أن لا أشرب فيها خمرا • فقرت عيناي بذالك • وان لي منادح (١) في العسل وماء الحيوان (٢) وكذالك من لم يتب عن الخمر في الدار الساخرة ، لم يسقها في الآخرة ••• » •

وصف الجنة :

« وفي تلك الانهار أوان على هيئة الطير السابحة ، والغانية عن الماء السائحة • فمنها ما هو على صورة الكراكي (٣) وأخر تشاكل المكاكي (٤) وعلى خلق طواويس وبط ، فبعض في الجارية وبعض في الشط ، ينبع من أفواهها شراب ، كأنه ، من الرقة ، سراب ، لو جرع منه جرعة الحكمي (٥)

(١) جمع مندوحة : غنية : لا مندوحة لي عنك : لا غنى لي عنك •
(٢) ماء الحيوان : ماء الحياة •
(٣) جمع الكركي : طائر كبير اغبر اللون طويل العنق والرجلين ، ابتر الذنب ، قليل اللحم ، يأوي الى الماء احيانا •
(٤) المكاكي : جمع المكاء : طائر من القنابر كثير الخفوق بجناحيه وله صفير حسن (من يمكو يصفر) •
(٥) ابو نواس •

لحكم بأنه الفوز ، وشهد له كل وصاف للخمر ، من محدث وعتيق ٠٠ » ٠

ويعارض تلك المدامة أنهار من عسل مصفى ما كسبته النحل الغاية الى الانوار ٠٠٠ ولكن قال له العزيز القادر : « كن ! » فكان ٠ وآها لذالك عسلا ! لو جعله الشارب المحرور غذاءه طول الأبد ، ما قدر له عارض موم (١) ولا لبس ثوب المحموم ٠ وذالك كله بدليل الآية : « مثل الجنة التي وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمرة لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات (٢) ٠٠ » فليت شعري عن النمر ابن تولب العكلي هل يقدر له أن يذوق ذالك الأري ، فيعلم ان شهد الغانية ، اذا قيس اليه ، وجد يشاكه الشري (٣) ٠٠٠ » ٠

---

(١) مرض البرسام : مرض يصيب الحجاب بين القلب والكبد فيلتهب٠
(٢) القرآن الكريم سورة محمد الاية ١٦ و ١٧ ٠
(٣) يشابه الحنظل ٠

٠٠٠ يعلق استاذنا الدكتور فؤاد افرام البستاني على هاذه الاوصاف المادية للجنة في رسالة الغفران قائلا : « فاصبح من يطالع الكتاب ، لاول وهلة ، يرى امامه عمل مسلم مؤمن بكل ما يروى عن الجنة ، مجتهد في تفسير الايات القرآنية الواردة بشأنها، ولاكنه، اذا قرأه بشيء من الحذر والانتباه، لا يتمالك =

منزل الحطيئة في أقصى الجنة !

« فيذهب ، فاذا هو بيت في أقصى الجنة ، كأنه حفش (١) أمة راعية ، وفيه رجل ليس عليه نور سكان الجنة ، وعنده شجرة قميئة (٢) ، ثمرها ليس بزاك ، فيقول : « يا عبد الله ! لقد رضيت بحقير ! فيقول : « والله ! ما وصلت اليه الا بعد هياط ومياط (٣) وعرق من شقاء ، وشفاعة من قريش وددت أنها لم تكن ! فيقول : « من أنت ؟ » فيقول : « أنا الحطيئة العبسي ! » فيقول : « بم وصلت الى الشفاعة ؟ » فيقول : « بالصدق ! » فيقول : « في أي شيء ؟ » فيقول : « في قولي :

أبـت شفتاي اليـوم الا تكلمـا
بهجر ، فلا أدري لمن أنا قائله !

= من الحكم على خبث المؤلف بما يستغل تلك الايات في سبيله . فيرى ان ابا العلاء يقيم من الله ، سبحانه وتعالى ، شرطيا قديرا على كل شيء ، ساهرا على راحة مختاريه ، لا عمل له ولا هم الا ارضاء شهوات المخلدين في تلك الجنة المادية .. هاذا العبث بأقدس ما يجل الانسان ، وهذا التهكم بأفضل ما يرجوه ، هو السخر بعينه ، وهو اهم عناصر ما ندعوه « بالروح العلائي » !

(١) الحفش البيت الصغير الحقير : الكوخ

(٢) صغيرة .

(٣) مجيء وذهاب واضطراب شديد .

أرى لي وجها شوه الله خلقة
فقبح من وجه ! وقبح حامله !

فيقول : « ما بال قولك :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب (١) العرف بين الله والناس!

لم يغفر لك به ؟ فيقول : « سبقني الى معناه الصالحون ٠ ونظمته ولم أعمل به ٠٠ فحرمت الأجر عليه » ٠٠٠

نماذج من شعره :

ضجعة الموت

غير مجد ، في ملتي واعتقادي
نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعي اذا قيـ
ـس بصوت البشير في كل ناد
أبكت تلكم الحمامة أم غنـ
ـت على فرع غصنها المياد

---

(١) العرف : المعروف ٠

صاح ! هاذي قبورنا تملأ الرحـ
ب فأين القبـور من عهد عـاد
خفف الوطء مـا أظن أديم الأر
ض الا مـن هـاذه الاجسـاد
وقبيـح بنـا وان قـدم العهـ
د ، هـوان الآبـاء والاجـداد
سر ان اسطعت في الهواء رويـدا
لا اختيـالا علـى رفـات العباد
رب لحد قـد صـار لحدا مرارا
ضاحـك مـن تزاحم الأضـداد
ودفـين علـى بقايـا دفـين
في طويـل الأزمـان والآبـاد
تعـب كلهـا الحيـاة فمـا أعـ
جب الا مـن راغـب في ازديـاد
ان حزنـا في ساعـة المـوت اضـ
عاف سرور في ساعـة الميـلاد
خلق الناس للبقـاء (١) وضلت
أمـة يحسبونهـم للنفـاد (٢)

---

(١) اي لبقاء النفس بعد الموت .. هاذا الرأي يغيره ابو العلاء في اللزوميات وبعد العزلة .

(٢) النفاد : الفناء .

انمـا ينقلـون مـن دار اعمـا
ل الى دار شقـوة أو رشـاد

ضجعة الموت رقـدة يستريح الـ
جسم فيها والعيش مثـل السهاد

قيلت هاذه القصيدة في رثاء أحد أصدقاء أبي العلاء المقربين ويدعى « أبا حمزة » : فقيه من فقهاء المذهب الحنفي ، معتدل ، متساهل في أمر الاجتهاد ، متنسك ، خطيب يدعو الى الخير ٠

ـ رثا أبو العلاء الانسانية جمعاء من خلال رثائه لصديقه هاذا ٠

ـ لاحظ كيف سيطر العقل فنهض من صميم الحادثة الخاصة الى النظر الشامل في الحياة والأحياء ٠ لاكنه ظل مندمجا بالعاطفة ٠٠ فظلت الحكمة التي هي وليدة العقل مندمجة حارة كذالك ٠

ـ لاحظ أيضا صدق العاطفة حيث اختفى التصنع اللغوي الذي عرف به أبو العلاء ٠٠ فانسابت

العاطفة انسيابا مع الكلم الموهوب والأسلوب الجنائزي المأساوي المشبوب ·· الخ ·· (١) ·

كان يسري في شرايين المعري دم الشهيد ، وفي قلبه وروحه توق الى الاستشهاد ·· طلبه كل يوم ·· وكل لحظة ·· فعاش غريبا عن الأحياء قريبا الى الأموات ·· الاحياء ·· الى الشهداء الكبار أمثال سقراط وعلي والحسين ·· يرى دماءهم تصبغ الأفق كل مساء :

وعلى الأفق من دم الشهيدين علي ونجله شاهدان
فهما في أوائل الليل بدران وفي أخريانه قمران

كما كان يسري في عروقه أيام الشباب دم يغلي بالأمنيات العذاب ويفور بنشوة العز والمجد :

الا في سبيل المجد ما أنا فاعل
عفاف واقدام وحزم ونائل

(١) لهاذه القصيدة الرائعة تحليل موفق للباحث الناقد المعروف ادوار امين البستاني : اطلب كتابه : ابو العلاء المعري : متأمل في الظلمات

وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم
باخفـــاء شمس ضوؤها متكامـــل

يهم الليالي بعض مـــا أنـــا مضمر
ويثقل رضوى دون ما أنا حامـــل

واني وان كنـــت الأخـــير زمانـــه
لآت بمـــا لـــم تستطعـــه الأوائل

ينافس يومي فيَّ أمســـي تشرفـــا
وتحســـد أسحاري علي الاصائل

ودم العروبة لا يزال يسري في كيان أبي العلاء فينطقه في سقط الزند بالرائع من الشعر الوطني الحماسي ، قال يصف معركة بين العرب والروم :

فلا قول الا الضرب والطعن عندنا
ولا رســـل الا ذابـــل وحســـام

فان عدت فالمجروح توسي جراحه
وان لـــم تعـــد متنا ونحن كـــرام

فلمـــا تجلـــى الأمر قالـــو تمنيـــا
ألا ليت أنـــا في التـــراب رمـــام

ورامو التي كانـــت لهـــم واليهم
وقد صعبـــت حـــال وعز مـــرام

وظنوك ممن يطفيء البرد نـاره
اذا طلعـت عنـد الغروب جهام

وانـك تثنيهـا قبالـة جلـق
متـى لاح بـرق واستقل غمـام

وقالو : شهـور ينقضين بغـزوة
وما علموا ان القفول حرام ..

أما فورة الفتـوة وعنفوان الصبا والاقبـال فيتجليان في وصفه ليلة حمراء من ليالي لهوه،أين منه وصف المبصرين :

رب ليـل كأنـه الصبح في الحسـ
ـن وان كـان أسـود الطيلسـان

قد ركضنـا فيه الى اللهـو حتى
وقـف النجـم وقفـة الحـيران

وكأني مـا قلـت والبـدر طفـل
وشبـاب الظـلام في العنفوان :

ليلتي هـاذه عـروس من الـز
نج عليهـا قلائد مـن جمـان
هـرب النوم مـن جفوني فيهـا
هـرب الأمـن من فؤاد الجبـان

وكأن الهـلال يهـوى الثريـا
فهمـا للـوداع معتنقـان

وسهيـل كوجنـة '' ب في اللو
ن وقلـب المحـب في الخفقان

يسرع اللمح في احمرار كما تسر
ع في اللمـح مقلـة الغضبـان

ثم شـاب الدجى فخـاف من الهج
ر فغطـى المشيـب بالزعفـران

وكأنهـا في لا وعيه ظـلال الالوان المفقـودة يستحضرها حِسّ التحدي ٠٠ وكأنها ليلـة تساوي ليالي المبصرين جميعا أو تفوقها ٠٠ أمـا اللون الاحمر فذكرى عزيزة تراوده فيلون به كل باهت من الألوان ٠٠

أما الحب فنعمة الاهيه . نعق بها قلبه فعشـق على السماع ، وناجى جارته في بغداد وأرسل اليها طيفه أو زاره طيفها ولاكن الحبيب لم يعشق على السماع ٠٠ فاختلفت الغايتان ولم يتلاق الحبيبان ٠٠ لاكن أبا العلاء ظل وحده يناجي الطيف ويرسل في سره القبـلات التي لن يحاسب عليها لأنها لـم

تكتب كما قال :

كم قبلة لك في الضمائر لــم أخف
منهــا الحســاب لأنها لم تكتــب

وظل في مواجد حرمانه معلقا بين الرؤى والأحلام والطيوف ... ثم انقلب الحب محبة .. وعشق الفتى المحروم أمه .. أو لم يجد غيرها حبيبـا مخلصا وفيا .. وأصابته عقدة أوديب .. غير أنها لم تنضح بسوى العفة والطهارة ونبل البنوة تجاه الأمومة المثلى .. وحق لمثله أن يستريح على صدر أمه .. أما نحن ـ الغارقين في تفاهات الدنيـا ـ فلنا سراب الصدور الأخرى .. حيث الحنان المزيف .. والحب المأجور ..

وسرعان ما يرتد الفتى المحب عن كبريائه .. طاويا في أعماقه أشواقه وأمانيه .. منسحبا وهو القوي أمام الدهر الأقوى :

يــا دهــر يــا منجــز ايعــاده
ومخلــف المأمــول من وعــده
أي جــديــد لــك لــم تبلــه
وأي أقــرانــك لــم تــرده

أرى ذوي الفضل وأضدادهم
يجمعهم سيلك في مده

تجربة الدنيا وأفعالها
حثت أخا الزهد على زهده

لو عرف الانسان مقداره
لم يفخر المولى على عبده

أمس الذي مر على قربه
يعجز أهل الارض عن رده

أضحى الذي أجل في سنه
مثل الذي عوجل في مهده.

الى آخر هاذه النفثات، المستسلمة على كره واستملاء
.. أمام دهر لا يرحم .. وليل سرمدي لا يزول :

عللاني فان بيض الأماني
فنيت والظلام ليس بفاني

كم أردنا ذاك الزمان بمدح
فشغلنا بذم ذاك الزمان

لاكن عاطفة الأبوة ظلت تواكبه وحب الوطن
والمستضعفين لا يفارقه :

الناس للناس من بــدو وحاضرة
بعض لبعض وان لم يشعرو خدم

– ولــو انــي حبيــت الخلــد فردا
لمــا أحببــت بالخلد انفــرادا

فلا هطلــت علــي ولا بأرضــي
سحائب ليس تنتظــم البلادا ..

وكذالك حب الحيوان والأشياء :

ولا تفجعن الطير وهــي غوافــل
بما وضعت ، فالظلم شر القبائح

ودع ضرب النمل الذي بكرت له
كواسب مــن أزهار نبت فوائــح

فما أحرزته كــي يكــون لغيرها
ولا جمعتــه للنــدى والمنــائــح

أما جبابرة الارض فكانو في نظره أهون مــن بعوضة وأحقر من ذبابة فقد أصبحو في عصره وكل همهم « قطع السبيل على ضعيف » ومهاجمة النساء « ولم يعفو النساء من الهجوم » ..

يسوســون الأمــور بغــير عقــل
فينفــذ أمرهم ويقــال : ساسة !

فأف من الحياة وأف مني
ومن زمن رئاسته خساسة !

مثل هاؤلاء لا تجوز اطاعتهم ولا دفع الضرائب لهم :

وأرى ملوكا لا تحوط رعية
فعلام تؤخذ جزية ومكوس ؟!

فهو يرى بحسه الحضاري ، السابق لزمنه ، أن الملك أو الرئيس تجب طاعته ودفع الضرائب له اذا كان « يحوط الرعية » بعنايته وينفق عليها مما دفعته له ، على شكل مشاريع وضمانات ودرء مخاطر ..

ومع هاذا فهم يسمون بأسماء الله وتطلق عليهم صفاته كذبا وزلفى :

كذب الذي سمى المملك قاهرا
نحن الأذلة والمليك القاهر

وكذاك يدعى طاهرا من كله
نجس ، ويفقد في الانام الطاهر

ـ لم أرض رأي ولاة لقبو
ملكا بمقتدر وآخر قاهرا

هـــاذي صفـــات الله جـــل جلاله
فالحق بمن هجـــر الغواة مظاهرا

كـــم قـــائـــم بعظـــاتـــه متفقـــه
في الدين يوجد حين يكشف عاهرا

ـ ويقال الكرام قولا وما في المصر
الا الشخـــوص والاسمـــاء ..

ـ رويدك قـــد غررت وأنت حر
بصاحـــب حيلـــة يعظ النســـاء

يحـــرم فيكـــم الصهبـــاء صبحـــا
ويشربهـــا علـــى عمـــد مســـاء

يقول لكـــم غـــدوت بـــلا كساء
وفي لذاتهـــا رهـــن الكســـاء

ـ نكذب العقل في تصديق كاذبهم
والعقـــل أولى باكرام وتصديـــق

ـ مـــا فيهـــم بـــر ولا نـــاسـك
الا الى نفـــع لـــه يجـــذب

أفضـــل مـــن أفضلهـــم صخـــرة
لا تظلـــم النـــاس ولا تكـــذب

ـ أما اذا مـا دعى الداعي لمكرمة
فهم قليل ، ولاكن في الأذى حشد

ـ أعـاذل قـد ظلمتنـا الملـوك
ونحـن على ضعفنـا أظلـم ..

والحل ؟ : طوفان يغسل الارض من دنسهم :

والأرض للطـوفـان مشتـاقـة
لعلهـا مـن درن تغسـل ..

ولم تكن الحياة كما يريدها ولا الأحياء : فهي متعددة الوجوه ، وهم كذالك .. وليفعلو به ما يشاؤون ، فالله وحده المتفضل المنقذ :

صنوف هـاذي الحيـاة يجمعهـا
طـول انتبـاه ورقـدة وسنـة

دنيـاك لـو حاورتـك ناطقـة
خاطبـت فيهـا بليغـة لسنه

ليفعـل الدهـر مـا يهـم به
ان ظنونـي بخالقـي حسنـة

لا تيأس النفـس مـن تفضله
ولو أقامـت في النار ألف سنـة

أما الفرق الدينيـة وقـد تجـاوزت في عصره السبعين عداً فهو يرفضها جميعا ويقف بين بين :

لا تعـش مجبـرا ولا قدريـا
واجتهـد في توسـط بين بينـا

وقد وجد العقل والحظ لا يجتمعـان في هاذه الدنيا فتمنى على الله أن يعكس المقادير والاقدار:

أيعكس هاذا الخلق مـالك أمـره
لعـل الحجـى والحظ يجتمعان ؟

ولنستمع معه الى حديث الارض :

غـذاكـم الله منـي ثم عوضني
ممـا لقيت ، فبالأجسام غذانـي

وطئتمونـي بأقـدام وأحذيـة
فقد ادلت ، فتحتي مـن تحذاني

والى صاحبيه المريضين :

يا صاحبي اللذين استشفيا لضنى
ممن تلوذان أو ممن تعوذان ؟!

بقراط، عمري، وجالينوس ما سلما
والحـق انهمـا في الطب فـذان

ثم ألا نسمع صوت المتنبي عبر هاذين البيتين :

يموت راعي الضأن في جهله
ميتة جالينوس في طبه ؟

أما الخمرة ــ وهي التي تذهب بالعقل ــ فأفضل منها كأس صاف من اللبن :

أفضل من أحمر السلاف ومن
كميتها ، ناصع من اللبن

ويا لغرور الانسان حين يطمع بأخيه الانسان • ها هي نهايتهما سيان :

جاران : ملك ومحتاج أتى زمن
عليهما فتساوى البؤس والترف

ان تركب الخيل أو تضرب مراكبها
من عسجد فالى الغبراء تنصرف

والفقر أحمد من مال تبذره
ان افتقارك مأمون به السرف

يعرى الفقير وبالدينار كسوته

---

(١) الصيوان : وعاء تصان به الاياب •

والموت كحاطب ليل يخبط خبط عشواء فلنفوض أمرنا الى الله :

رددت الى مليك الحق أمري
فلم أسأل متى يقع الكسوف

فكم سلم الجهول من المنايا
وعوجل بالحِمام الفيلسوف

واياك والضغن فان آثاره تبدو على وجه صاحبه :

وقلما تسكن الاضغان في خلد
الا وفي وجه من يسعى بها كَلَفُ ..

ولا تفعل الخير تطبعا بل طبعا :

والخير يفعله الكريم بطبعه
واذا اللئيم سخا فذاك تكلف

ويطول بنا المقام ـ هنا ـ في تعداد روائع أبي العلاء ونفثاته في مثانيه ومثالثه ورباعياته وقصائده . وحبذا لو رجعنا الى « سقط زنده » ، و « فصوله وغاياته » و « لزومياته » و « رسائله » ولا سيما « رسالة غفرانه » فهناك يطيب المقام وتحلو المعاشرة ..

عود على بدء :

أشرنا في حاشية الصفحة الأولى من هاذا الكتاب الى أننا سنتبع في كتابتنا العربية القاعدة التالية (١)

أولا : ما لا يلفظ لا يكتب مثل : حذفو لم يحذفو لن يحذفو وهاكذا ٠

ثانيا : وما يلفظ يكتب بحروفه الأصيلة لا البديلة : كهاذا ، مثلا ، وليس (هذا) ، لاكن ، وليس (لكن) الى آخره ٠٠

نفعل ذالك ـ على الاقل ـ لرفع التناقض غير المبرر في الكتابة القديمة ٠ فلماذا كتبو ـ قديما ـ (هاته وهاتان) مع الألف الطويلة ، و (هذه وهذان وذلك) بدونها ؟ ثم استعاضو عنها بمدة سموها خنجرية ٠٠٠!

لعلهم خافو من التباس المعنى بين (هتان)

---

(١) طبقنا شرطاً واحدا من شروطها وهو حذف الالف في الفعل الماضي لجمع المذكر (كما في كتبو) والمضارع المجزوم او المنصوب (كما في لم يكتبو ـ لن يكتبو) طبقنا ذالك في كتابنا « ابن خلدون » الصادر عن دار مكتبة الهلال ١٩٧٩ ـ بيروت وها نحن نطبق القاعدة كلها في كتابنا هاذا ٠

(صيغة المبالغة لانهمار الماء أو الدفع) و (هتان) (اسم الاشارة للمثنى المؤنث) •• ولم يخافوه في (هذا أو هذه أو هذان) •• مع انهم يعلمون أن اللغة العربية تفهم أولا لتقرأ وليس العكس ••

لقد آن للحرف العربي أن يتحرر – على الأقل – مما يشوه كمال لفظه وجمال صورته • وهناك من حولنا أمم غيرت حرفها تغييرا جذريا ليتفق مع متطلبات العلم والفن الحديثين ، وليسهل على المطابع المتطورة رسمه أو سكبه أو حفره أو صفه أو رصفه ••

واني لآمل من الزملاء – ومن جيل الطليعة بالذات – أن يعتمدو هاذه الطريقة في كتاباتهم العربية ، لا لأهميتها بحد ذاتها ، بل لأنها خطوة أولى على طريق تحرير وتطوير الحرف العربي والكتابة العربية بكاملها ، ولما فيها من روح التحدي والرغبة في كسر التقليد الذي طالما أساء الى العقل العربي وشده الى الوراء ••

ملاحظة هامة :

تبين لنا ان هاذا الشكل القديم للكتابة العربية

لم يكن معمولا به الا في المشرق العربي • أما المغرب العربي فقد اعتمد قديما (وربما حديثا) الطريقة التي ندعو الى اعتمادها في المشرق ••

فقد طالعنا البحاثة الأب اغناطيوس عبده خليفة اليسوعي بحقيقة كنا نجهلها حين نوه في الصفحة ١٨ من الرسالة ــ المخطوطة لابن خلدون في التصوف بعنوان « شفاء السائل لتهذيب المسائل » والتي قام هو بتحقيقها ودراستها قائلا : « يتصف مخطوطنا بما تتصف به المخطوطات المغربية من كتابة الكلمات التي تتميز عن كتابتها في الشرق عادة : فان التاء المربوطة يعوض عنها بتاء طويلة : مراعات ، نجات، مداوات •• وان المغرب يضع كرسي ياء حيث الشرق يضع ألفا : سئل (سأل) يسئل (يسأل) • وبدل الألف الممدودة يضع ألفا طويلة : روا ، يتراءا • ويكتب بعض الكلمات بصورة غير مقتضبة : لاكن ، هاذا ، ذالك » الخ •• (١)

« تم الكتاب »

---

(١) اقترح اعتماد هذه الطريقة وعمل بها زميلنا وعديلنا المحقق المعروف الدكتور احمد اللواساني • اطلب كتابه « نظرات في تاريخ الادب » الجامعة اللبنانية ــ بيروت ــ ١٩٧١ •

الفهرس

هذا الكتاب

آن لنا ألا ننظر بعين الآخرين إلى من نؤرخ لهم، أو ندرسهم من فلاسفتنا، ومفكرينا، وشعرائنا، مهما بلغ الناظرون، ومهما أبصروا .. إذ ما قيمة البحث، إن لم يضف الباحث جديدًا، يرى رأيًا، يسجل موقفًا، يكتشف مخبأً، يجتهد .. فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد ..

وهذا هو فيلسوف المعرة بين أيدينا في هذه الدراسة: إن لم نجتهد وننظر إليه من زاوية جديدة، ولو متواضعة، فماذا عسانا نفعل .. وخير لنا أن نجتهد فنخطئ، من أن يأتي البحث تاريخًا باهتًا مكرورًا .. وهذا ما أراده المؤلف.

ودار مكتبة الهلال يسعدها أن تقدم في هذا الكتاب محاولة جريئة لفهم أبي العلاء فهمًا موضوعيًا حديثًا، فيحتل شاعرنا المتفلسف مكانه الصحيح بين الشعراء المتأملين والمفكرين الأحرار المبدعين